المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ فبراير سنة ١٩٤٩ — ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٦٨

الروحانية وتطورها

عند البدائيين وفي العصر القديم

— ٤ —

(تتمة البحث)

عالج ارسطوطاليس علم النَّفس منتحياً الوجهة الأحيائيـة (Biological) ، فَجَعل النفس أو الرّوح —(psuchy) پسوخي في اليونانية— من نصيب كل الأشياء الماديّة التي لها قُدرات مختلفة على الحركة الذاتية والنموّ ، أي لكل المتعضيات الحيّة . وكان مرماه من ذلك أن يفرق بين ما يتصف بالحيـاة وبين اللاعضويّات أو العالم اللاعَضْوِي أي الذي لا حياة فيه ، فقال بأنّ ما فيه حياة « حيوان » (١) أي حيّ أو « ذو نفس » أو « ذو روح » . أمّـا كلمة « پسوخي » اليونانية كما فهمها أرسطوطاليس فأقرب ترجمة عربية لها هي « الحياة » : Life أو « المبـدأ الحيوي » ، وأبعدُ ما نكون فهماً للمعنى الذي عناه ارسطو اذا ترجمناها « بروح » أو « نفس » . فالحيـاة أو « المبدأ الحيوي » عند المعلم الأول هو الذي يميز بين المتعضّي الحي وبين الأشياء اللاعضويّة ، وينطوي تحت هذا

---

(١) وإن الدار الآخرة لهي الحيوان (قرآن كريم)

المعنى كل الخصيَّات التي للأحياء ، بما فيها القدرات العقلية . ولقد نكون أكثر افصاحاً عن المعنى الذي عناه ارسطوطاليس اذا قلنا إنه قصد « بالروح » أو « النفس » مجموع الوظائف الحيويَّة .

من مجموع القدرات الحيويَّة أو بالحري « القوى النفسيَّة » للمتعضيَّات ، استطاع ارسطوطاليس أن يفرق بين خمس صور مختلفة :

(١) مجموع القوَّة النباتية : كالإستمراء والنموّ والتوالد
(٢) الشهوة والرغبة أو الدافع
(٣) الإحساس
(٤) الحركة الذاتية في خلال المكان
(٥) التفكير العقلي .

لا يشارك النبات الحيوان في شيء من ذلك إلاَّ في الأولى دون الباقيات . أما الحيوان فله الأربعة الأُوَل ، لأن اختصاصه بالوُسْطَيَات الثلاث يتضمن الأولى استتباعاً . أما الانسان فيختص بهؤلاء جميعاً ، ويتفرد بقوة العقل .

ليست هذه القدرات وظائف تقوم بها « نفوس » مختلفة ، ولا هي مجالي مختلفة لأجزاء النفس . ذلك بأن النفس « وحْدَة » وكل كائن حي إنما هو توليف من نفس وجسم . ومع هذا فان النفس والجسم ليسا شيئين مستقلّين ، لأنه يتعذر على أحدهما أن يبقى بدون صاحبه ، وأنه لا يمكن الفصل بينهما إلاَّ في « الفكر » والنفس لا يمكن اعتبارها شيئاً ماديًّا ، ولكن يتعذَّر انفصالها عن المادَّة . أما الجسم فهو « السبب الماديّ » للكائن المتعضّي ، في حين أن النفس هي « السبب الفاعِلي » بحكم انها تحدث حركاته . وهي فوق ذلك « السبب الصوريّ » للمتعضي بحكم أنها هي التي تحدد صورة الفرد العضوي . وفوق هذا وذاك هي « السبب الغائي » لأنها هي الغرض الذي من أجله يوجد الجسم .

* * *

هذه هي الخطوط الرئيسة في مذهب أرسطوطاليس . أما ما يتفرع عنها كانفصالية النفس والجسد ، أو علاقة النفس بالحياة والعقل ، فتلك تفاصيل لا نعرض لها هنا ، لأنها

بعيدة عما نرمي إليه من تلخيص الفكرة في الروح أو النفس .

ومن مجمل البحوث التي سقنا فيها القول في مذهب الروحانية ، نجد أن هنالك فكرة شاملة ثابتة في التفريق بين النفس والجسم أو بين الروح والمادة ، تلك الفكرة التي ثبَّتها أفلاطون في تقاليد الدنيا الثقافية ، وان هذه الفكرة لم تضعف ولم تهن في زمن من الأزمان. ولكن العصر الذهبي لهذه الفكرة ونعني به العصر الذي ظهر فيه سقراط وأفلاطون وإرسطوطاليس ، قد عقبه عصر غلبت فيه ظواهر الشك فذاعت فيه المذاهب الشكِّيَّة وبرزت الآراء الماديَّة التي حاولت أن تقضي على الثنائية التي قال بها أفلاطون . فإن ابيقور وقد اعتنق مذهب ديمقريطس في الذرَّات (الجواهر الفردة) قد بشر بأن الروح عبارة عن مادة لطيفة تنتشر في جميع أبعاد الجسم ، وهي أشبه ما تكون بالهواء المشبع بقليل من الدفء ؛ وقال بأنها من أجزاء الجسم ، يستطيع الجسم بها أن يشارك في الاحساس وانها تندثر باندثار الجسم . فاذا حدث الموت تناثرت ذرات الروح في الهواء . وفرَّق أبيقور بين مظهرين من مظاهر النفس أو الروح . الأول المظهر اللاعقلي أو القوة الحيوية التي تستحكم في كل أجزاء الجسم ، والمظهر العقلي ومستقره الصدر وهو عضو الفهم والارادة . وفي هذا جاراه لوكريشيوس .

ولقد عقب على ذلك الرواقيون فكان لهم مذهب جديد يقول بأن النفس أو الروح لها أساس مادي يتألف من الهواء والنار، وان هذا الأساس هو الذي يحتكم في الجسم نماء وشعوراً وتفكيراً .

* * *

وعلى هذا ظلَّ الفكر الانساني متراوحاً بين مادية ابيقور والشكِّيَّة وبين المذهب الرواقي ، حتى ظهور الأفلاطونية الجديدة في الاسكندرية والمذاهب النصرانية ، فكانت الأفلاطونية الجديدة مثالاً لما تطور اليه الفكر الأغريقي ، والنصرانية مثالاً لما تطورت إليه المذاهب العبرانية .

اسماعيل مظهر

بترول الشرق
الاوسط
يزداد مقامه في خارطة البترول العالمي

تدفق البترول من منطقة عسل في صحراء سيناء وفيراً وقبل ذلك انساب هـذا السائل « المبارك » من ينابيع أخرى في مصر وفي الشرق الأوسط، وكل يوم يمضي يميط اللثام عن مستودعات جديدة غنيّة بالنفط اهتدى إليها مهندسو الزيت وخبراء التنقيب عنه .

وقد عرض لنا في مجلة « ويرلد أويل » الأميركية مقال طيب عن منطقة بكر تستغل في استنباط النفط في الشرق الأوسط فعنّ لنا أن ننقله ملخصاً إيضاحاً لجانب من جوانب صورة البترول العامة في هذه المنطقة الإستراتيجية .

فتعتزم شركة البترول الأميركية المستقلة الشروع قريباً في التنقيب عن البترول وفي استخراجه تطبيقاً لما ظفرت به من امتياز يبيح لها العمل في المنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية في قلب الرقعة التي تعد أغنى منطقة بالزيت في الشرق الأوسط .

وقد أنشئت هذه الشركة في شهر أغسطس من عام ١٩٤٧ واشتركت فيها عشر شركات بما تملكه من موارد وتجربة للعمل في خارج الولايات المتحدة

والمفهوم أن شروط الامتياز التي فاوضت الشركة فيها الشيخ احمد الجابر الصباح حاكم الكويت تتضمن ما يلي :

أولاً — يدفع نقداً وعدًّا مبلغ ٧ ملايين وربع مليون دولار من مال الشركة الى شيخ الكويت .

ثانياً — يدفع رسم اكتراء (إيجار) سنوي قدره ست مئة ألف وخمسون ألف دولار

ثالثاً — تدفع للكويت حصيلة قدرها دولاران ونصف دولار عن كل طن أي نحو ٣٤ سنتاً عن كل برميل .

رابعاً – ربما اشترك حاكم الكويت في أعمال الشركة المزمع انشاؤها وقد يساهم فيها بنحو ١٥ في المئة . وقد قيل إن هذا البند من العقد في حاجة الى توضيح وتفسير . ويحتمل أن يقتضي الأمر إنشاء شركة أخرى تتعهد مصالح حاكم الكويت في هذا المشروع .

خامساً – تمنح الشركة الأميركية المستقلة حقوقاً بترولية كاملة في نصف المنطقة المحايدة على ساحل الخليج الفارسي وهي منطقة يملك الشيخ نصفها ويملك الملك عبد العزيز نصفها الآخر .

وتتمتع شركة البترول العربية الأميركية الآن بحقوق الأفضلية في الظفر بامتياز في النصف الآخر من تلك المنطقة وهو المملوك للمملكة العربية السعودية (مما يذكر ان الشركة نزلت عن هذا الحق لانشغالها بالمنطقة الواسعة التي يشملها امتيازها في المملكة العربية السعودية) .

وتتألف منطقة الامتياز من أرض صحراوية طولها خمسون ميلاً على أكبر تقدير تمتد من الشرق الى الغرب ، وعرضها معدله ٥٠ ميلاً . ومع أن الجيولوجيين خصوا المنطقة المحايدة لم يستنبط البترول منها بعد . وتعمل الشركة على إيفاد جيولوجيين وسواهم من الخبراء الى تلك المنطقة ليعجلوا بتنفيذ المشروع .

***

وقد قال المستر رالف ديفيز – وهو الذي أذاع في لندن نبأ الظفر بعقد استغلال هذه المنطقة لحساب الشركة الأميركية المستقلة – « إن الشركة الأميركية المستقلة عند مفاوضتها لعقد هذا الامتياز ترى انها كتبت فصلاً سيكون له شأن كبير في المستقبل في تاريخ صناعة الزيت في الشرق الأوسط . فهذه أول مرة يجري فيها رجال مستقلون أعمالاً واسعة النطاق تعززها مالية كافية لاستنباط الزيت في الشرق الأوسط. ففي إيران والعراق والمملكة العربية السعودية وامارات الكويت والبحرين والقطر مستودعات للبترول تضم ملايين من براميل الزيت ولها امكانيات من حيث الإنتاج في المستقبل تزيد حتى على ذلك

المقدار . وهذه الينابيع إما مملوكة أو خاضعة لإشراف عدد من الدول أو مجموعة من الشركات الكبيرة في بريطانيا وأميركا وفرنسا وهولندا وامتيازات بعضها تشمل مناطق فسيحة جدًّا بحيث أنه لم يستطع حتى الآن سوى كشف جزء يسير منها » .

واستطرد المستر ديفيز قائلاً : « ولعلَّ هذا الموقف لا يثير قلقاً شديداً ما دام الزيت موفوراً في جميع انحاء العالم ولا سيما في الولايات المتحدة بيد أنه بالتحول في الولايات المتحدة من عصر عرف بوفرة بتروله إلى عصر يشح فيه مورده وبجنوح الولايات المتحدة الى الاعتماد على البترول الخارجي ترتب على عدم وجود عنصر مستقل قوي في الخارج مشكلة ملحة مباشرة تهم كلاًّ من شركات البترول والشعب عامة

« وفي العصر الجديد للبترول في العالم نرى أن من مصلحة الحركة الصناعية بأسرها أن تتكيف مع الحقائق الماثلة . ولا يصح للرجل المشتغل بالبترول أن يعد عبارات « المزاحمة » و « الشركات الحرة » وما الى ذلك مجرد عبارات . فاذا كان لصناعة البترول التي طالما ألفناها أن تزدهر وتعيش يجب على المستقلين أن يبذلوا كل ما في طاقتهم ليجدوا لهم مكاناً في إنتاج البترول في العالم » .

وأشار المستر ديفيز الى أن في الكويت ـ اذا غضَّ الطرف عن المنطقة المحايدة ـ شركة للبترول اسمها « شركة بترول الكويت » تملكها بالتساوي « شركة الزيت الانجلو ـ إيرانية » وهي انجليزية و « شركة التنقيب في الخليج » وهي شركة أميركية وهاتان الشركتان تعملان في منطقة لعلها أغنى بقعة في العالم بالبترول ، فيقدر رصيد البترول المختزن في باطنها بنحو ٩ بلايين برميل . وهذه الحقول البترولية تتاخم في الشمال المنطقة التي منحت الامتيازات الجديدة لاستغلالها .

* * *

ونرى في مناطق أخرى من خارطة البترول في الشرق الأوسط سحباً مرجعها الى استمرار الحرب بين العرب واليهود في فلسطين . وقد نفت السفارة البريطانية في وشنطن ما قيل من أن لندن تسعى لمساعدة العرب بأن تبقي على معامل تكرير البترول في حيفا موصدة الأبواب . وأشارت السفارة الى أن شركة بترول العراق التي تشرف على المعامل

لا تملكها الحكومة البريطانية وقالت إن معامل حيفا أوصدت أبوابها بسبب عدم وجود يد عاملة نظراً لنشوب الحرب ويقول اليهود انهم لا يستطيعون توفير عدد كاف من العمال للعمل في المعامل وحتى إذا استطاعوا ذلك لا يسعهم أن يضمنوا اعادة فتح المعامل لأن انسياب البترول عبر خطوط الأنابيب الى حيفا يمكن وقفه في كل وقت من جانب الحكومة العراقية .

وينقل البترول الخام الآن الى طرابلس في لبنان ثم يشحن الى خارج الشرق الأوسط لتكريره .

والبترول الذي يكرر في معامل طرابلس الصغيرة هو البترول الذي ينساب اليها مباشرة من كيركوك .

* * *

أما أنابيب البترول التي كان يراد استخدامها في مد الخط عبر الجزيرة العربية من الظهران الى صيدا في لبنان فقد سلمت لشركة للغاز في ولاية تنيسي الأميركية .

وسبب العدول عن اتاحة هذه الأنابيب للاستعمال في الأراضي السعودية وما يليها هو أن « شركة الخطوط عبر الأراضي العربية » وهي منتسبة لشركة البترول العربية الأميركية لم تظفر برخصة اصدار من المسؤولين في أميركا بسبب بعض العقبات السياسية ؛ ولم تظفر بابرام سوريا لاتفاق مرور الأنابيب عبر أراضيها.

وقيل إن الشركة تفكر في تعديل اتجاه خطوط الأنابيب بحيث تصب في ميناء العقبة الى الناحية الشرقية من شبه الجزيرة العربية . وهذا المصب يقتضي بدوره الشحن في قنال السويس الا اذا استطاعت الشركة أن تمد الأنابيب عبر صحراء سيناء الى البحر المتوسط . وقد يستطاع تحقيق ذلك بمد أنابيب تحت سطح الماء في العقبة وان كان من الصعوبة بمكان تنفيذ هذا المشروع لأن عمق الماء في تلك المنطقة يبلغ الفي قدم .

وإذا كان من المستطاع مرور أنابيب البترول عبر منطقة النقب الى ساحل البحر المتوسط حلت المشكلة على وجه مرض ولكن هناك عقبات تعترض ذلك .

وديع فلسطين

مغنية

لبشار بن برد

وذاتِ دلٍّ كأنَّ البدرَ صورتها   باتت تغني عميدَ(١) القلبِ سكرانا:
(إنَّ العيونَ التي في طرفها حورٌ   قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا)
فقلتُ أحسنتِ يا سؤلي ويا أملي   فأسمعيني جزاكِ اللهُ احسانا:
(يا حبذا جبلُ الرَّيان (٢) من جبلٍ   وحبذا ساكنُ الريانِ من كانا)
قالت فهلاً، فدتك النفس، أحسن من   هذا لمن كان صبَّ القلبِ حيرانا:
(يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ   والأذن تعشقُ قبل العين أحيانا)
فقلت أحسنت أنت الشمس طالعةً   أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعيني صوتاً مطرباً هزَجاً (٣)   يزيدُ صباً محباً فيكِ أشجانا
يا ليتني كنتُ تفاحاً مفلجةً (٤)   أو كنتُ من قضبِ الريحان ريحانا
حتى إذا وجدتْ ريحي فأعجبها   ونحن في خلوةٍ مثلتُ إنسانا
فحركتْ عودها ثم انثنت طرباً   تشدو به ثم لا تُخفيه كِتمانا:
(أصبحتُ أُطوعَ خلقِ الله كلهم   لأكثرِ الخلق لي في الحبِّ عصيانا)
فقلتُ أطربتِنا يا زينَ مجلسنا   فهاتِ إنكِ بالاحسانِ أولانا
لو كنتُ أعلمُ ان الحبَّ يقتُلني   أعددت لي قبل أن ألقاكِ أكفانا
فغنَّت الشربَ صوتاً مؤنقاً (١) رملاً   يذكي السرورَ ويبكي العينَ ألوانا
(لا يقتلُ اللهُ من دامتْ مودتهُ   واللهُ يقتلُ أهلَ الغدرِ أحيانا)

---

(١) عميد القلب : مريضه ، يقال : قلب عميد إذا هدّه العشق وكسره . (٢) الريان : جبل في ديار طيء لا يزال يسيل منه الماء ، وهو في مواضع كثيرة منها . (٣) الهزج : ضرب من ضروب الاغاني فيه تطريب بتدارك الصوت وتقاربه (٤) مفلجة مقسمة ويريد بذلك أنها إذا قسمت كانت أسطع نفحاً وأضوع شذاً وطيبا .

الشيخوخة
وطول العمر

هل من الضروري أن يهرم الانسان
في سن الستين أو السبعين ؟

يقدّرون عادةً بداية الشيخوخة وما يطرأ على الانسان في هذا الدور من الحياة من التغيرات الجثمانية الكبيرة في سن الستين . غير أن هذه الأعراض أو العلامات تختلف كما لا يخفى اختلافاً كبيراً بحسب طبيعة الأشخاص، وبحسب طريقة معيشة كل واحد منهم ، وعاداته وأمياله وشهواته والعمل الذي يزاوله والأمراض التى انتابته ، ولا سيما الوراثة . أوَما علمنا الاختبار أن السر الحقيقي في اطالة الحياة هو المحافظة على القوى الجسمية والعقلية سليمة من كل شائبة ، والمعيشة الصحيّة والتغذية الصحيحة والاعتدال في كل الأمور ؟

بماذا تتميز الشيخوخة

والتغيرات التي تعتري المرء في دور الشيخوخة كثيرة متنوعة ، فمنها جسمية ومنها نفسية وأخرى عقلية ، والأولى من هذه التغيرات يكون ظهورها أبكر من النوعين الأخيرين . فحماسته كما هو معلوم تفتر ، وجذوة الشباب فيه تنطفىء ويعود غير قادر على العمل أو بذل الجهود التي كانت تساعده عليها فتوته وشبابه . ويلاحظ أحياناً عند بعضهم ، حتى في سنّ مبكرة ، (٣٠ أو ٣٥ سنة) : نقص في لدونة الجلد نتيجة اختراق الأملاح الكلسية لبعض الأنسجة ، وتكوُّن الغضون في الجبهة والصدغين ، وزوال قسم من الشعر وابيضاضه قبل الأوان (حوالي سن الأربعين) ثم سقوطه تدريجاً بعد ذلك .

وهكذا قل عن الأسنان فانها تهترىء ويتطرق إليها التلف والفساد عند الهرمين قبل أوانهم — ومثلها العيون التي تصاب بطول البصر Presbyte . فصاحب هذا البصر لا يرى إلا من بعيد وإذا أراد أن يرى الأشياء أو الأشباح من قرب فلا يمكنه ذلك بدون استعمال النظارات . ويشاهد أيضاً عدا ذلك : قوساً حول القرنية يسمى بـ « قوس الشيخوخة » Arc sénile كما أن الصوت يضعف والأذن يغدو سمعها ثقيلاً ، و يكون التنفس أقل نشاطاً

أو الحويصلات الرئوية تفقد مرونتها ، والعظام تمسي أشد صلابة ، والغضاريف التي بين فقرات الظهر تستدق فيؤدي ذلك الى نقص محسوس في طول الانسان . أضف الى ما تقدم : تكوُّن نسيج خلوي في الأحشاء كالكبد والكليتين والمخ والأعصاب والشرايين فيعوقها عن القيام بوظائفها ، وينشأ هذا النسيج نفسه من اهمال الجسم سواء تغذيته والحط من مستواه الصحي . وأخيراً درجة الحرارة الطبيعية ، فهذه تكون بوجهٍ عام عند ابن الستين ٣٦ مئوية ، وعند ابن الثمانين ٣٥ مئوية في غالب الأحيان .

وبتقدم الانسان في السن تقل حاجته الى النوم . فابن الخمسين أو الخامسة والخمسين مثلاً يكتفي بست ساعات من النوم ليلاً دون أن يشعر بتعب ما . وبعد هذه السن نراه يكتفي بخمس ساعات فقط : هذا للقاطنين في المدن . أما سكان القرى والأرياف أولئك الذين يحرثون الأراضي ويقومون بأشغال مضنية متعبة فيحتاجون طبعاً الى ساعات أكثر من النوم . ولننظر الآن من ناحية الطول والوزن ، فالمشاهد أن الطول يقل شيئاً فشيئاً بتقدم الانسان في السن وذلك اعتباراً من سن الخمسين بسبب خسف الأقراص الغضروفية بين العظام ، ولا سيما بين الفقرات الظهرية ، ومن بعض الانحناء الذي يحدث في العمود الفقري

والوزن بدوره يقلّ أيضاً بتقدم الانسان في السن في سن الخمسين أيضاً عند الرجل بعكس المرأة التي يزداد وزنها في هذه السن ، حتى اذا ما بلغت الستين من العمر يأخذ أن يقلّ حينئذٍ وزنها . ويبلغ مجموع ما يفقده الرجل من الوزن في سن الشيخوخة ٩ كيلوغرامات ، والمرأة ٨ كيلوغرامات ونصف .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فالقوى العقلية يطرأ عليها نقص وانحطاط في ذات السن . فعند البعض يكون هذا النقص مبكراً ، وعند البعض الآخر متأخراً . ومهما يكن في الأمر فالقوى العقلية تضعف بضعف القوى الجسدية وتقوى بقوتها . فكلاهما يسيران جنباً الى جنب من حيث القوة والنشاط أو الضعف والانحطاط .

وأول ما يضعف من القوى العقلية هو الذاكرة ، ويليها الحكم بالأشياء ، وأعني بذلك تلك الخاصة العقلية المميزة التي تقابل وتقايس الأمور وتحكم في صحتها أو خطأها .

وهنالك أيضاً قضية الشعور والحس والعواطف ، وهذه أيضاً تتبدل بدورها عند كبار السن . فالشعور بالفرح أو الألم ، أو بعاطفة الحنو والشفقة والرفق ، أو الحساسية تجاه شعور الآخرين ، تغدو عندهم ، وفي محيي ذواتهم أيضاً ، ضعيفة ان لم تقل معدومة غالباً ، لأن أولئك الشيوخ والمسنين لا يتأثرون إلاّ بالأعمال التي تعود اليهم أو التي لهم فيها نصيب مباشر .

وأخيراً الاضطرابات النفسية ، وهذه لا تحدث لحسن الحظ إلاّ متأخرة . ذلك لأن الذي يبلغ سن الهرم يفقد أحياناً الحس الأدبي الذي يجعله أن يميز بين الخير والشر ، وما يجب أن يعملهُ أو لا يعملهُ ، ولهذا يكون عادم الشعور أحياناً بما يأتيه في الأعمال دون أن يدرك عواقبها وما يترتب عليها من المسؤولية .

ولا بد من التنويه هنا أيضاً بأن عقلية كبير السن تختلف اختلافاً جوهريًّا فيما إذا كان عزباً أو متزوجاً أو له أولاد أيضاً . فاذا كان عزباً ، وهو الذي عاش دائماً منفرداً منعزلاً ، وحصر كل جهوده في محبة نفسه ، نرى ان كل ما يزعجهُ أو يعاكسهُ أو يبدل من عاداته الصغيرة — يكون مكروهاً ممقوتاً في نظره . وبما أنه قد تجنب طوعاً اعباء الحياة وتبعات الزواج والأولاد فمحبة الذات تنمو وتزداد فيه أكثر فأكثر بتقدم السن ولذا نراه يكره غالباً الأولاد الصغار وحركاتهم وضجيجهم ، ويسيء الظن في من كانوا أعزاء لديه في شبابه وينظر اليهم بالحذر والاحتراس . وعلى نقيض ذلك يكون الرجل المتزوج المحاط بالعائلة والأولاد ، فإن الهرم لا يدركه بالسرعة كما يدرك الرجل الأعزب ، بل يأتيه بعد أوانه ، كما أن قواه لا تميل الى الانحطاط بل تأتي بطيئة وفقاً للمحيط الذي يعيش فيه أو يفتكر به في كل لحظة ، والذي يضطره غالباً الى أن ينسى نفسه أو يضحي بها لأجله .

تلك هي أهم التغيرات الجثمانية والعقلية والنفسية التي تصيب الانسان في سن الشيخوخة. ولكن هل يجب أن تكون هذه الحالة عامة لأن البعض تكون حالهم هكذا حينما يشيخون ؟ ، وهل من الضروري أن يهرم الانسان في سن الستين أو السبعين ؟ كلاّ ليس من الضروري ذلك وفي يده مفتاح الشباب الدائم ، فالمحافظة على القوة والنشاط الجسماني وكيان القوى العقلية والنفسية في حالة جيدة حتى سن متأخرة تتوقف ولا ريب على كيفية معيشة الانسان في حياته ، فكم من المرّات مثلاً نرى أشخاصاً في شرخ الشباب وهم منهكو القوى خائرو العزيمة سريعي العجز ، والهرم أدركهم قبل الأوان ، وآخرون بالعكس من ذوي البنية القوية ، نشيطي الحركة والأعمال ، وهم من أبناء الستّين والسبعين ؟ فمجرد السن اذاً لا يكون دليلاً قاطعاً على عجز المرء وضعفه . ولدينا أمثلة تحتذى عن أشخاص كثيرين بلغوا عتيًّا من العمر ، وبقيوا محافظين على قوتهم الجسمية والعقلية . ويضربون المثل بروكفلر الكبير الذي حتم أن لا يرحل عن الدنيا قبل أن يبلغ عمره مائة عام . وقد احتفل بميلاده السادس والتسعين . وللويد جورج السياسي المعروف ورئيس الوزارة البريطانية ابان الحرب العالمية الأولى ، كان يذهب الى ساحات القتال على ما عهده الناس فيه من بأس وقوة وعمره ٧٢ سنة ، فالسنون لم تؤثر فيه وكأنه كان شابًّا في جسمه وعقله .

وهكذا قل عن ڤردي الموسيقي الايطالي العظيم الذي ألف أنواعاً كثيرة في الأوبرا وهو في الرابعة والسبعين والثمانين والخامسة والثمانين . ومثله الفيلد مارشال هندنبرغ الذي مات في الرابعة والثمانين من عمره بعد ان بقي يقود أزمة الأمور في بلاده في أحرج الأوقات حتى آخر نسمة من حياته .

وهنالك أيضاً فاندربلت المالي الأميركي الشهير الذي أضاف الى ثروته الطائلة مائة مليون دولار وهو بين السبعين والثالثة والثمانين من عمره — مما يدل على انه ظلّ محتفظاً بقواه العقلية ومواهبه وهو شيخ مسن ، وإلاّ لما تمكن من جمع هذه الثروة العظيمة

ولا ننسى كذلك أحد معاصرينا المشهورين ألا وهو الكاتب الارلندي الكبير برنارد شو الذي بلغ العقد الثامن من العمر وهو لا يزال في أوج مجده الأدبي يؤلف الروايات التمثيلية المختلفة .

وقد دلت احصاءات عام ١٩٣٣ في بريطانيا على انه توفي هذا العام ١٠٩ أشخاص كلهم بلغ مائة عام أو تزيد . والثابت اليوم ان نسبة المعمرين في أيامنا هذه قد ارتفعت بمقدار ١٥ عاماً بفضل تقدم العلاج وتنظيم الصحة الشخصية والوقاية من الأمراض المتوطنة وغيرها . وفي استطاعة الانسان أن يعيش قرناً من الزمن اذا عاش عيشة صحية معتدلة ، وحافظ على قواه الجسدية والعقلية، وتجنب الأسباب المضعفة للجسم والمنهكة للاعصاب . أما اذا أطلق لاهوائه وأمياله وعواطفه العنان ، وأسرف في بذل جهوده العقلية والجسدية وتفنن بألوان الطعام والشراب ، وحرم نفسه من الراحة والرياضة والتنزه والهواء الطلق، واستسلم الى الهواجس والاضطرابات الفكرية ، فلا غرابة بعد ذلك اذا اعتلّ جسمه وتهدّمت قواه ، وانتابته العلل والأمراض، وغلب في ميدان الكفاح .

ولا يجب أن يغرب عن البال ان الوراثة تلعب أيضاً دوراً هاماً في اطالة أمد الحياة . فكثيرون منهم الذين بلغوا مائة عام أو أكثر كانوا من عيال بلغ أفرادها هذه السن تقريباً . وتدل الاحصاءات الفرنسية الرسمية ان النسبة المتوسطة للحياة تزداد بصورة محسوسة مع الزمن . فبينما كانت في فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، تسعة وعشرين عاماً فقط ، تراها تبلغ فيها في عام ١٩١١ تسعة وأربعون عاماً . أما في انكلترا فقد بلغت النسبة المتوسطة للحياة في عام ١٩١٢ خمسين سنة ، وفي أسوج واحد وخمسين ، وفي الولايات المتحدة خمسة وخمسين .

ومما تقدم يظهر لنا أن مدة الحياة تزداد الآن سنة واحدة كل عشر سنوات . واذا فرضنا أن هذه النسبة تستمر في الزيادة بفضل تقدم الصحة العمومية والشخصية ، والطب

الوقائي، وتحسين شروط المعيشة ، فمن السهل أن نحسب أنه بعد خمسمائة أو ستمائة عام تكون النسبة المتوسطة للحياة مائة عام تقريباً .

العوامل المساعدة على بلوغ الهرم المبكر

ان بلوغ الهرم في أوانه أو قبل أوانه يتوقف كما قلنا على سلامة القوى العقلية والجسدية ، وقديماً قالوا العقل السليم في الجسم السليم . ولكننا نتساءل هنا : هل أن كل الناس يعيشون الآن عيشة صحية ، وأجسامهم سليمة من العلل والأمراض ويسيرون سيراً حكيماً معتدلاً في أمورهم ؟ كلا . فكثيرون منهم يعتقدون في الغالب أنه ما دام الانسان متمتعاً بصحة جيدة فليس في حاجة الى التقيد بالقواعد الصحية . ذلك هو السبب في أن أمراضاً شتى تصيب الانسان في عصرنا هذا نتيجة الافراط في كل شيء ، فيندفع المرء في تيار المدنية الحديثة ، والحياة في ظل حضارتنا هذه تغري بالاسراف في بذل الجهود والقوى الجسدية والعقلية ، والتفنن بألوان الطعام والشراب ، والسهر الطويل ، واطلاق العنان للأميال والأهواء ، والحرمان من راحة الجسد والعقل — وهذا كله لا يستعجل الشيخوخة فقط ، بل يقضي على الانسان قضاء مبيناً عاجلاً أو آجلاً .

ويزيد الطين بلة انحراف بعضهم عن جادة العقل والصواب بسبب ادمان المسكرات ، والافراط في التدخين وتعاطي القهوة والشاي بمقادير زائدة ، والتسمم بالأفيون والمورفين والكوكائين والحشيش الخ . وهذه كلها سموم قتالة تدك أركان الجسم وتضعف قواه ، وتقود حتماً الى الهرم والسقام ، والعلل المختلفة من حيث لا ندري . وتزداد الحالة شؤماً ووبالاً انغماس الكثيرون منهم في حمأة الرذيلة وتفشي الأمراض السرية (الزهري والسيلان) التي جنته علينا المدنية الحديثة . ولا يقتصر ضرر هذه الأمراض على المصاب فحسب ، بل يتعداه الى نسله والى المجتمع أيضاً .

اننا لا ننكر طبعاً حسنات المدنية الحديثة ، وما أفادته من بعض الوجوه ، لكنها بالعكس أضرت من وجوه أخرى . والانسان هو الذي يجني ثمار الأغلاط التي يرتكبها غالباً عن جهل أو عن اهمال لاختلاله بالتوازن الذي قضت به سنن الطبيعة بين قواه ومواهبه العقلية والجسدية من جهة ، ولعدم معرفته معرفة تامة كيف يتدبر العوامل الجديدة التي جلبته اليه المدنية الحديثة وتلافي أخطارها .

فاذا أردنا ابعاد الشيخوخة ما أمكن ، علينا أن نقتبس حسنات مدنيتنا هذه لاصلاح ما أفسدته من حالتنا الصحية ، ثم جعل موازنة بين أوقات العمل والراحة . فوقت العمل يجب أن يصرف في العمل كي يوفر الانسان لنفسه مقداراً كبيراً من أوقات الفراغ ، وكلما

تقدَّم الانسان في السن يقلل عدد ساعات العمل . فعند ابن الأربعين يكون عدد ساعات العمل ساعة واحدة لكل خمس سنوات يتقدمها في العمر لغاية سن الثمانين أو التسعين .

ولا بدَّ كذلك من اعطاء الجسم حقه من الراحة ، ولا سيما النوم . فالنوم الباكر والنهوض الباكر من أفيد الأشياء لصحة العقل والجسم ولراحة الأعصاب . والراحة التي يتطلبها الجسم ليلاً لا تتوقف على الوقت الذي يقضيه الانسان في النوم بل على النوم نفسه ، لأن نوم ساعات قلائل براحة تامة أفضل بكثير من الاضطجاع ساعات كثيرة في حالة سهاد متقطع ، أو أرق مضن ينهك الجسم بدلاً من أن ينيله حاجته الضرورية في الراحة فليس كالنوم الهادىء معوان على اكتمال الصحة وتمام العافية .

ويقتضي أيضاً على من يريد الاحتفاظ بصحته أن يكون طعامه صحيًّا منوَّعاً موافقاً لحاجات جسمه ، ويكون بنوع خاص قنوعاً في أكله وشربه لأن الاكثار من الطعام يجلب السمنة وأخطارها كالاصابة بالبول السكري ، وارتفاع ضغط الدم ، واضطرابات القلب ، وتصلب الشرايين وحصى المرارة وغيرها . وطبيعي أنه كلما تقدم الانسان في السن تقل كفاءة أعضائه في تأدية وظائفها ، خصوصاً اذا كانت الأسنان مسوسة فاسدة ، وفي هذه الحالة يكون المضغ سيئاً فيؤدي ذلك الى إجهاد المعدة وسوء الهضم وبالتالي الى تعب الكلى وأمراضها والى التسمم البطيء المزمن .

والرياضة البدنية كما لا يخفى هي أيضاً من أهم الأمور ، ولا سيما السير على الأقدام في الشمس والهواء الطلق . ومن أنواع الرياضة النافعة لمتوسطي السن المشي والسباحة والتجذيف والصيد وركوب الخيل الخ التي اذا عُملت في أوقات النزهة والراحة ، تساعد كثيراً على تنمية الجسم ونشاطه ، وعلى تنمية الصحة النفسية من حيث الاتزان ورباطة الجأش وازالة الكرب وإبعاد الحزن والهم وتخفيف أعباء الحياة عن الأجسام المتعبة والنفوس المكتئبة .

نصائح وارشادات لابن الستين وما بعد هذه السن

١ — ﴿ الطعام والشراب ﴾ : القناعة في الطعام والشراب من أهم القواعد الصحية الواجب على المرء اتباعها ولا سيما لكبار السن ، لأن الشراهة في الأكل ، كما قال الطبيب الافرنسي غاستون دورفيل Gaston Durville « احدى جروح الانسانية الكبيرة لأنها تهلك اليوم من معاصرينا أكثر مما يهلكه السل والسرطان معاً » .

ويقول أيضاً المفكر الكبير تولستوي بشأن ذلك اننا نأكل في عصرنا هذا ثلاث مرات أكثر مما يتطلبه جسمنا . وهذا ما يؤدي الى أمراض شتى تعمل على تقصير أمد

الحياة قبل الأوان، فالحياة ليست قصيرة ، ولكننا نحن الذين نعمل على تقصيرها .

فأهم ما يجب عمله على الذين بلغوا تلك السن أن لا يأكلوا أكثر مما تسمح لهم به شهيتهم، وإذا كانت هذه الشهية زائدة عندهم فعليهم أن يكونوا معتدلين بها ، إذ لا شيء أضر لكبار السن من الاعتقاد بأن الاكثار من الطعام يزيد في قوتهم ونشاطهم .

ولا بدّ من الاقلال بنوع خاص من تعاطي اللحوم ، ويكفي لذلك مرة واحدة في اليوم بكمية قليلة . والأفضل مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع . ويفرم اللحم عند اللزوم في حالة تسوس الأسنان أو سقوطها ، وكلما قلل كبير السن من المواد الزلالية والدهنية في طعامه كان هضمه أسهل . أما من ناحية السمك والبيض فيجب اعتبارهما كاللحم تماماً من جهة خواصهما الغذائية . فمرة يعطي اللحم ، ومرة أخرى السمك أو البيض ، وليس كلها في وجبة واحدة . والسمك البحري أو النهري يعتبر أسهل اللحوم هضماً ، وهو أيضاً أكثرها احتواء على الفوسفور واليودين . انما يحسن بالانسان ألاّ يتناول السمك في وجبتين متواليتين إلاّ بمقدار قليل، لأن الاكثار من الأسماك واللحوم ينتج عنه تراكم العمل على الكلى والكبد فوق طاقتها مما يجعل صحتها في خطر — هذا فضلاً عن تعرض المأكولات المذكورة لسرعة التعفن وتوليدها للحوامض .

ويقلل أيضاً كبير السن من تناول أنواع الخضار الكثيرة البروتين كالحمص والفاصوليا والفول والبزلة والعدس لأنها عسرة الهضم وعرضة أيضاً للتعفن . ويعتمد بالعكس في طعامه على أكل البقول الخضراء الطازجة والمسلوقة ، والبطاطس والألبان والزبدة والفواكه الناضجة والأثمار المطبوخة Compote ، والحليب الساخن وحساء الخضر الساخن والمهلبية والحليب المطبوخ بالأرز والسكر والمربيات . ولا بأس من تناول الشاي والقهوة بمقادير قليلة . وبالاختصار نقول أن أوفق غذاء له هو غذاء الطفولة . والمهم تجنب الأطعمة الصلبة العسرة الهضم لأنها تهيج الامعاء ، واختيار أبسط الأطعمة في الغذاء .

٢ — ﴿ الرياضة البدنية والاستحمام ﴾ : أحسن ضروب الرياضة ، وعلى الخصوص لكبار السن ، المشي ميلاً أو ميلين في اليوم . ويحترس هؤلاء من الرياضيات الجسمية المتعبة مثل ركوب الدراجة وصعود الجبال والسباحة والسير الطويل على الاقدام الخ ، ولا ننكر أن مثل هاته الرياضات تنشط الجسم وتنبه القلب والرئتين ، غير أن فائدتها هذه تكون بالأحرى لأشداء البنية وليس لأبناء الستين وما بعدها لأنها تكون عليهم عبئاً ثقيلاً .

ومن فوائد الرياضة البدنية الخروج للنزهة بعد الطعام ولو لمدة قصيرة فقط ، إذ لا شيء

أضر من الحياة الجلوسية والمكث في البيوت والحوانيت بلا حركة ، ان الصحة لا تقوم الا بترويض وظائف الجسم ، والأعضاء ، اذا لم تروَّض ، تضعف قوتها ، هذا فضلاً عما تجلبه الرياضات للجسم من انشراح الصدر ، وتنبيه شهوة الطعام وتقوية الهضم ، وان رافقها ملل أحياناً

وبين الرياضات الأخرى المسلية لأبناء الستين أيضاً : صرف جزءٍ كبيراً من أوقات الفراغ في زراعة الأزهار في الحدائق والبساتين ، والنجارة والتصوير الخ . فكثيرون من الرجال العظام كانوا يصرفون أوقات فراغهم بمثل هذه الأمور المسلية ، ولكن يوجد هنا نقطة أخرى هامة يقف عندها حائراً كبير السن عند ما يحال مثلاً على التقاعد ، أو حينما ينسحب من العمل من تلقاء نفسه — بعد أن اشتغل كثيراً في حياته على أمل أن يستريح في شيخوخته هو أنه يجد نفسه بعد الانسحاب من شغله كأنه ضالاً . فمكتبه وشغله وأعماله الاعتيادية تنقصه فجأة ، ولا يدري ماذا يعمل وكيف يقضي وقته ، فيعتريه الملل والضجر ، ولا شيء أضر للانسان فعلاً من الملل والضجر ! فالأشخاص الذين ظلوا محافظين على قواهم ومواهبهم الى سن متأخرة تكون حياتهم نشيطة عادة ، والنشاط ضروري لكبير السن كما للبالغ ، والمهم معرفة أشغال وقت الفراغ ولكن ليس في سن الستين أو السبعين يجب أن نفتكر بخلق أشغال جديدة توافق هذه السن ، بل يجب الافتكار بذلك قبل الانسحاب من العمل (أي قبل الستين) والاستعداد للحياة الجديدة التي سيعيشها المرء بعد هذه السن ، فهذا يحب مثلاً أن يكون بستانيًا ويحرث الأراضي والبساتين ، والآخر يميل الى تربية النحل ، وغيره الى النجارة وما شاكل ذلك

أما من ناحية الاستحمام ، فكبار السن يفيدهم خصوصاً الحمام الفاتر ، ولا سيما الفرك الناشف للجلد بكفوف الشعر ، والاستحمام بالماء الفاتر يفيد بنوع خاص في مدة الحر ومدة الشتاء لما يكون الجسم بارداً لأنه ينعش القوى ويزيد التهييج العصبي

٣ — ❊ الملبس ❊ لاشيء خصوصي يمكن ذكره عن الملابس لكبار السن ، فهؤلاء يكونوا كما لا يخفى سريعي التأثر بالبرد ، ولذا يجب أن تكون ملابسهم حارة خفيفة ، والاّ تضغط على الجسم لئلاّ تعوق الأعضاء عن تأدية وظائفها الحيوية ، وتكون أيضاً واسعة ، كثيرة الخلايا بحيث يخترقها الهواء بسهولة لصحة البشرة وتنفس الجلد . فالهواء ضروري للبشرة بمقدار ما هو ضروري للرئتين ، فينبغي ألاّ تحول الملابس دون وصوله إليها .

بيروت — لبنان الدكتور عبده رزق

نظرات فى النفس والحياة

- ١٢ -

نظرات لورد بيكون

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الانجليز الذين أُولع أهل الخيال والأهواء بهم فتارةً يزعمون كما قرأت في مقال إنه ادوارد السادس مع أنَّ بين ميلاديهما فرق يقرب من الجيل، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون الى قصر الملكة اليصابات وكان من أعوانها وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير وأسرته معروفة والبيت الذي ولد فيه غير مجهول وكل حوادث حياته حقائق معلومة فليس في حياته أي غموض . وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون انه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمي ولكن شكسبير كان مكثراً من العمل وبيكون كان مكثراً من العمل ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معاً مهما كانت قدرته . وبالرغم من أن بيكون كان أديباً فانه كان يعد البحث العلمي العملي أهم من الأدب وقد مات بسبب أنه خرج في يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهي حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن . وقد كان ينعي على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملي العلمي وله مؤلفات كثيرة فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء في أساطيرهم وكتاب أقوال مشاهير الرجال وكتاب اطلنطيس الجديدة وكتاب تاريخ حياة هنري السابع وكتاب (نوفام أُرجانوم) أي الأداة الجديدة في العلم والتعليم وكتاب تقدم العرفان ؛ وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله في البرلمان وفي المحاكم في سماع القضايا والحكم فيها وكتابة أسباب حكمه بعد التفكير فيها وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير ولم يشتهر بشيء من الشعر مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر في عهده حطة لهم ، فكيف كان يستطيع

مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة ؟ على أن في قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية ما لا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر ولكنها هي والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون وشكسبير في بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه وهذا لا ينطبق على بيكون كما أن شكسبير كان في بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء . وهذا أيضاً يستبعد من بيكون الذي كما يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وان كان أكبرهم فنسب قصصه الى غيره . أما بحوثه العلمية التي كان يقضي بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر ولا غرابة في ذلك . ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة في العلم والوصول من الشواهد الخاصة الى القاعدة العامة ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأً عامًّا واشترطها في البحث العلمي العملي في كتابه عن العلم والتعلم . ولا شك أن عقله كان أكبر من قلبه ولا داعي للخوض فيما اتهم به من العيوب إلاّ أنه من الضروري أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة في القضاء واعترف بذلك قائلاً إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل . وقد ندم على ما فعل. وقد عومل بالرفق في محاكمته ثمَّ ما لبث أن أطلق صراحه وأسقطت عنه الغرامة التي فرضت عليه . وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية : —

(١) الحق كضوء النهار لا يزين قناع زخارف الحياة المموَّهة وأباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم اذا كان الحق خالصاً من شائبة الخداع للنفس ، كما يزينها إذا كان مشوباً بشيء من الخداع للنفس بالباطل خداعاً قد يكون غير مُدْرَكٍ وضوء هذا الحق، الحق المشوب بخداع النفس ، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع في المراقص المُقَنَّعة ليلاً يخفي نقائص ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفي بعض ما بها من ادعاء . ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من غير تعمد للخلط شيء من الباطل كي يقلل من نور الحق فلا ينمُّ على أكاذيب الحياة وهي كثيرة ، وهل من شك في أنك اذا سلبت من انسان كل ما في عقله من آراء لا أساس لها من الحق، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التي تملقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه

والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام في الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة . فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدنُ الخسيس الأشد صلابة الذهبَ الابريزَ كي يزيده صلابة ويجعله أصلح ؛ كنقودٍ في المعاملات وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط .

(٢) جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت . وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما في الموت وهو تلف الجسم كله بما في تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم . وهو قياس غير صحيح لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم والألم فيها أسرع مفعولاً . فكثيراً ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم . وليس في النفس احساس قوي يعجز عن التغلب على الخوف من الموت . فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والاحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الاشفاق والرحمة وهي أرق الطباع ، كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت وحتى الملل من الأمر المعتاد المكرر قد يتغلب على الخوف من الموت فالموت إذاً أقل شدة وبأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين .

(٣) من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله ، فيؤدي ذلك الى الاجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو . لقد كان من الكفر والأجرام قول ابليس إني أريد أن أصعد الى عرش الله . أليس مما هو أشد كفراً وإجراماً أن يريد المرء انزال الله من عليٍّ عرشه كي يشركه في قسوة الانسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر .

(٤) إن من أعظم العظمة التي هي في منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر . ويعجبني قول سنكا الفيلسوف الروماني في هذا الموضوع (أسما ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب) .

(٥) إن الحزن الذي تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والايمان كالثوب القاتم اللون

المطرز بالخيوط الزاهية البهجة . فهو املأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التي تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتي تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد .

(٦) مهما كان الرياء لازماً فهو مظهر من مظاهر العجز في الأمر الذي لجأ اليه المرائي إذ لولا العجز فيه ما لجأ الى الرياء .

(٧) من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها ، فاذا لجأوا الى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد انهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون في مكرهم عن أبصار الناس . وهذا يذكرني قول أبي تمام الطائي :

سكنَ الكيدُ فيهمُ إن من أعظم إربٍ أن لا تُسمى أريبا

(٨) الرجل الذي يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول ما لا يعرف ويدعي انه شاهد ما لم يشاهد وحضر ما لم يحضر . والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم . والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان . وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبة ووقاراً . ومن أغرى أهل الفضول بمعرفة سر ما يكتم في صمته . وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لا تنم على ما يكتم لأن الناس يصدقون ما تنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وان نمقه وزينه . ومن مزايا الكتمان أنه يدعو الى استنامة أعدائه والى مباغتة مناضليه وانه يدع لنفسه طريقاً للتراجع إذا اضطره الأمر إذ لو أعلن أمره اضطر الى المضي فيه أو الى إظهار العجز والخيبة . وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام، يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم لكن المبالغة في الصمت والكتمان قد تغري الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل . ثم إن صمت مثل هذا المُبالغ قد يحير من يريد أن يعاونه وأن يشركه في أمره فيفقد ثقة بعض الناس . ولعلَّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لا يعاشرهم ولا يحادثهم .

(٩) يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء في تنمية روح المنافسة فينمي التحاسد والتباغض في نفوس الأطفال الصغار من حيث لا يشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفطنون الى ما يمكنونه في النفوس البشرية

من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها في الحياة كثير وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة . وإنما يلجأون الى هذه الخطة لأنها في نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال .

(١٠) في النفوس صفة لؤم ذائعة وهي أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلاّ إذا صادف نقصهم نفساً كبيرة تجعل نقصها زائداً في شرفها وشفيعها ولمدحها، إذ يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه . والحسد داء الأمم والدول ومضعفها ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم اذا خشوا عاقبته. والحسد كالوباء فمن خشي الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب، وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء . وإذا فشا الحسد في أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه . وفي أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصاً والرأي السديد خرقاً والعمل الصادق عملاً كاذباً في دعوى ذوي الحسد الذين يرون في انقلاب الأمور وحقائقها إخفاء لحسدهم ونقصهم وهم مثل الزارع الذي يزرع الشوك والحسك في الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو .

(١١) قال ديموستنيس الخطيب الأثيني أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة في الحركة والفعل . وكذلك ألزم صفات النجاح في الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة . مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود لأنه إذا تشعب منه الفكر تردّد في شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها فالجرأة أحطّ من غيرها من الصفات الفاضلة . ومع ذلك فهي من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها .

(١٢) قد يكون المرء صالحاً جداً حتى أنه من شدّة صلاحه لا يصلح لمباشرة أي عمل من أعمال الدنيا بنجاح . والحقيقة هي أن النجاح في الحياة قد يتطلب — إلاّ إذا جاء عفواً — شيئاً ولو قليلاً من المكر والاحتيال يخالط فضله وصلاحه . وقد يخفيه ذلك

الفضل ولكنه موجود يخفي حتى على بعض من يتفكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم، واما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه ، واما جهلاً بأن الغباوة لاتجافي المكر والاحتيال . وان المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح وكثيراً ما يلجأ إليه الغبي كي يجعله عوضاً عما حُرِمَه من الذكاء والفكر

(١٣) قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الاسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور في أمور لا حاجة إليها وأن توهم غير ذلك) ان الاسراف في أمر من الأمور يقتضي الاقتصاد أو التقتير في أمور أخرى — وهذا يذكرني قول معاوية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ : — ما رأيت إسرافاً قَطّ إلاّ والى جنبه حق مُضيَّع .

(١٤) سوء الظن يكثر في ظلام العقل كالخفافيش تكثر في الظلام واذا عظم سوء الظن عَطَّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا الى الظلم والغيرة والتردد والحزن والى فقد الأصدقاء . واذا كان سيء الظن جباناً هلوعاً يتملكه الذعر والرعب اذا فكر فيما يسيء به الظن فإن رعبه قد يدفعه الى عدم التثبت ظنًّا انه اذا تعجَّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه. واتقاء ما يساء به الظن كأنه أمر حقيقي لاخطر منه، بل هو لازم اذا لم ينزله المرء في نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحمق لمعاقبة من يسيء به الظن وكذلك الذي يساء به الظن وهو بريء أو يخشى ان يساء به الظن ينبغي أن لا يظهر في ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاَّ أسيء به الظن ريبة وان كان بريئاً كما قال الطغرائي الشاعر (إن الهَيُوبَ مُريبُ) في بيته الآتي :

تخفى بسالتُهُ مَطارح هَمِّهِ   ومَرامهُ إنّ الهَيُوبَ مُريب

(١٥) إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به ، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوساوس التي تنمو بسبب سوء ظنك به ، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً — وهذ يذكرني قول البحتري

أدعُ الصاحب لا أعذله   لا يُسمَّى بعقُوق فيُعَقّ

(١٦) ينبغي لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر، أن يتذكر دائماً أن هذه القدرة

تبعث الشك وسوء الظن به وبمقاصده حتى يجعل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك وقد يذكر المرء قولاً بريئاً لا سخر به فيحمل الناس معناه على ما بدر منه في أوقاتٍ أخرى من السخر (وهذا يذكرني قول لورد تشسترفيلد : ينبغي لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلّدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مُصليتاً لها وأن يتخذها عدة للدفاع اذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة في نظر لورد بيكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والاجلال .

(١٧) كل من كان في نفسه شيءٌ يدعو الى احتقارهِ مُزَوَّدٌ بدافع نفسي يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذي يدعو الى الاعجاب أو بالظهور بين الناس اما بالفضل واما بالشر كي يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الاعجاب بفضله فكم من عاهة أو نقيصة في حياة المرء حَثَّتْ على العظمة أو على الاجرام . واذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد

(١٨) المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العويصة العظيمة النادرة لأن الحياة اليومية أحوج الى الأولى كما انها أحوج الى النقود القليلة القيمة في التعامل اليومي — ولأنها أقرب الى فهم جمهور الناس وأقل هدفاً للحسد .

(١٩) أكثر الناس تغاضباً الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدلّلون الذين هم أشبه بهؤلاء . ومن أجل ذلك ينبغي أن يستحي العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظنّاً أن الغضب من مظاهر العظمة وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله .

(٢٠) بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخَيَّل للناس فيهم من العقل . وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه . فملامح الوجه قد لا تدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة وبعض الناس له مهارة في إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت إنهم يعرفون

أكثر مما يريدون أن يقولوا وبعضهم يوهم ذلك باشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لا يتأمل ولا يفكر وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل —(وهذا يذكرني قول شيرير الناقد الفرنسي: ان بعض الناس كالمنازل الضيقة التي تكاد تكون لا عرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسي البارز فيحسب الرائي انها منازل كبيرة وهي صغيرة جدًّا).

(٢١) بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذي يريد أن يقنع الناس أنه غني كي يجد من يقرضه مالاً ليتلافى أمر إفلاسه وكي يعود الى الكسب والى الارتزاق. وهؤلاء اذا عَنَّ موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأي فيها.

(٢٢) قد يكون الرجل ذا إثرة محبًّا لنفسه ومع ذلك يكون في حاجة شديدة الى صديق فليست الحاجة الى المصادقة والمودّة من سلامة الطويّة وطيب القلب وإنما هي ضرورة كضرورة من يأخذ الدّواء كي يجري به المرارة في جسمه ويُدرّها. وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم — ولعلّ هذا هو السبب في غيظ ذوي الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعلّه سبب من أسبابه — وبعض الناس لا تتم متعتهم بالسرور إلاّ بإعلانه لصديق أو جليس ولا يسهل تحملهم للشقاء إلاّ بالشكوى لمشير أو جليس أو صديق ومكاشفته وهذا يذكرني قول الشاعر العربي.

ولا بدّ من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

(٢٣) تزداد آراء المرء صحة ووضوحاً بالمحادثة لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خالياً بنفسه منفرداً. فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأي ونقده ويستثنى من ذلك الحديث الذي لا يراد به هذا الأمر بل يراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهاترة.

(٢٤) اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلاّ بمداواتهما. وقد قال تاسيتوس المؤرخ الروماني في وصف أمثال هذه البيئة المختلة:

بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون في أن يعمل غيرهم الشر وأكثر من هؤلاء وأولئك الذين يستحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم . فان رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور في نظامها وحياتها التي تحياها ولاسيما اذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كي يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم وإذا كثر في مثل هذه الأمة الذين يسرفون في الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهي أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرّت ظواهرها .

(٢٥) مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان فالذي يحاول منعها اذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذي يجعل جروحه تدمي في داخل جسمه بدل أن تدمي على ظاهره وعلى جلده فيعالجها وهي إذا دميت في داخل جسمه سببت التقيح والتسمم في بدنه وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولا ينفس عنها بعض التنفس بالعمل أو القول أوالكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها .

(٢٦) إذا لم تجد النفس منفذاً الى النجاح والتبريز في الأمور العظيمة فلا تنتعش إلاّ بالنجاح والتبريز في الأمور الصغيرة وقلما تنتعش وتطمئن الى السكينة التامة الخالية من أي مظهر من مظاهر النجاح فانها حينئذٍ تنطوي على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ما تتلهى به مما يؤدي الى النجاح والتبريز في أي أمر من الأمور صغيرها وكبيرها .

(٢٧) أشد الناس إثرة وأنانية لا يتورعون من احراق مدينة كي يقلوا بيضة أي لا يتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة ومع ذلك لا يغتر الناس كما يغترون بذوي الاثرة والأنانية لأن مطالب اثرتهم والرغبة في الفوز بها قد تدعوهم الى ملاطفة الناس واسترضائهم فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس اليهم الناس ويثقون بهم وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه اثرتهم إلاّ إذا كان صاحب الاثرة أحمق لا يعرف كيف يستدني مآربها بملاطفة الناس واظهار غير ما يبطن .

(٢٨) خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم أما آراؤهم فحسب

ما تعلموا ولكن أعمال الناس حسب العادات التي تعودوها ومن أجل ذلك لا يصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لا يصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه ففي النفوس طباع متناقضة ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاَّ إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاَّ كان عمله ضد رأيه في بعض الأحايين فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأي أو عقيدة ويعطي المواثيق على أن يعمل وفقها ثمَّ لا يفعل بل يفعل ما تقتضيه عاداته فكأنما الانسان آلة مسيَّرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة في المصنع .

(٢٩) للانسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحاً خائباً فكأنه مدحٌ عقيم وللانسان مزايا أقل ظهوراً من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثْل هذا الانسان الذي نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقةٌ ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة في سيرها أو عجلات الآلة ومثل هذا الرجل قلما يخطِّئه الناس أو يذمونه أو يسببون له الخيبة ومثل هذا لا يشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل بل قد يكون نقصه فيهما معيناً له على النجاح وبعكس ذلك تجد أناساً لا يستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا في القول والعمل .

(٣٠) المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل انسان بما يود ذلك الانسان أن يُمدَح به وبما يمدحُ به نفسه والشرير هو الذي يمدح انساناً بما يضره ويؤذيه واذا مدحت من كان في مثل فضلك أوجبتَ لنفسك المدح وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلاً أنكر الناس فضلك بالقياس .

(٣١) بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذي يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادي انساناً أخفى وغيَّر اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرِّض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة . وقد يصح رأي هذا الباحث إلاَّ إذا كان جليسه هيوباً فيصدق فيه قول الطغرائي (إنَّ الهيوب مريب)

(٣٢) ينبغي للقاضي أن يذكر دائماً أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كي تكون أحبولة صيد وفخاخاً وشباكاً يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

(للبحث بقية) ع . ش .

قصة

أسف !...

للكاتب الفرنسي «جي دي موپاسان
ترجمة الآنسة : نعمت حسني

استيقظ السيد « سافال » ويسمونه في (مانت) « الأب سافال » . . . من نومه في الصباح المبكر . ثم ارتدى جلباباً يستر به ثياب النوم . وكان اليوم من أيام الخريف الحزينة . . فقد أظلمت السماء وتهاطلت الأمطار . . وأخذت أوراق الشجر تتساقط على مهل . . وكأنها أمطار أخرى ، أكثر غزارة وأكثر تؤدة . ولم يكن السيد سافال ، مرحاً في ذلك اليوم .. فجعل يقطع المسافة ، فيما بين النافذة والمدفأة ، ذهاباً وإياباً.

الحياة تتخللها أيام عابسة مظلمة . ولسوف تكون من الآن فصاعداً ، سلسلة أيام مظلمة عند سافال .. فقد بلغ الثانية والستين من عمره ولم يتزوج بعد .. فهو فتى عجوز . . وليس من يحيط به ! يا لله ! محزن ولا شكّ ، أن يموت الإنسان هكذا ، وحيداً . . وليس من يحبه أو يحنو عليه !

وفكّر سافال ، في حياته العارية الجوفاء التافهة . وتذكر الماضي القديم . . تذكر أيام طفولته ، والبيت الذي كان يضم الأسرة . . والكلية التي تعلم فيها . . . ثم التخرج فيها . . ودراسة القانون في باريس . ثم مرض أبيه ، الذي أعقبه الموت .

إنه أقام بعد ذلك مع والدته . . وعاش الاثنان معاً ، في هدوء وسكون . . الشاب والمرأة العجوز . . ولا يطلبان شيئاً من لذائذ الحياة ونعيمها ، غير ما قدر لهما . ولكن ماتت أمه أيضاً ، وتركته وحيداً . فكم هي حزينة هذه الحياة !

وهكذا عاش سافال وحيداً . والآن ، سوف يموت بدوره في وقت قريب . . سوف يختفي من هذا الوجود ، وقد انتهى كل شيء . . فلا سيد بول سافال ، فوق وجه الأرض .

إنه حقًا ، لشيء بغيض ، إن أناساً آخرين ، سوف يعيشون بعد ذلك ، ويتحابون ، وسوف يضحكون ويلهون . . بينما هو ، لا يكون له وجود بالمرة . . . لعله عجيب ، إننا نضحك ونلهو ونمرح ، ونحن نعلم يقيناً ، إن الموت مصيرنا الأخير . لو كان هذا الموت أمراً يشك فيه ، لأمكن لنا أيضاً ، أن نأمل النجاة منه . . ولكن لا ، إنه شيء لا مفرَّ منه . . كما انه لا مفرَّ من أن يعقب الليل النهار .

* * *

لو أن حياته قد ملئت ! لو أنه أتى بعمل ما . . لو كانت له حوادث . لو أنه تذوَّق حلاوة المسرات ، والنجاح . . والرضى بأنواعه . ولكن لا ، لاشيء من هذا كله ، إنه لم يصنع شيئاً ، لم يصنع شيئاً البتة ، سوى أنه يصحو من نومه ، ويأكل في ساعات محدَّدة ثمَّ تأتي ساعة النوم فينام . وواصل أيامه على هذه الطريقة ، الى الثانية والستين من عمره .. حتى ولم يكن قد تزوَّج ، كبقية الرجال . ولماذا ؟ أجل ، لماذا لم يتزوج ؟ وقد كان في امكانه أن يتزوَّج . . فهو يملك ثروة لا بأس بها . أهي الفرصة لم تواته ؟ ربما ! على إنه يمكن ايجاد هذه الفرص ! لقد كان كسولاً متهاوناً . . هذا كل ما في الأمر . كان الكسل مرضه العضال . وكان عيبه ونقيصته . كم من الناس خاب أملهم في الحياة ، بسبب تهاونهم هذا . . فهناك بعض الطبائع ، من الصعب عليها ، أن تنهض أو تتحرك ، من تلقاء نفسها .. أو تتكلم ، أو تسلك بعض المسالك ، أو تدرس المسائل ، أو تريد شيئاً ، بغير حاجة الى الآخرين !

يالله ! بل ولم يكن سافال ، محبوباً . فما من امرأة واحدة ، ألقت برأسها على صدره في غمرة من الغرام ، ولم يعرف عذب الانتظار اللذيذ . . وتلك الرعشة السماوية ، التي تنشأ عن ضغطة يد الحبيب . . ثم ذهول الغرام الحلو ، الذي يطغى على كيان المحب !

إنها لاريب سعادة فوق احتمال الانسان . . تلك التي تغمر القلب ، عند ما تتقابل الشفاه للمرة الأولى . . بينما تكون الأذرع الأربعة ، قد ضمت بين كائنين ، وقد جنَّ أحدهما بالآخر غراماً وجعلت منهما كائناً واحداً . . كائناً سعيداً ، في منتهى السعادة .

وأخيراً ، جلس السيد سافال ، بالقرب من الموقد .. وجعل يدفىء قدميه على النار ، ولم يزل غارقاً في التفكير .

لا شك في أن حياته كانت فاشلة ، فاشلة كل الفشل . ومع ذلك ، فانه أحب . إنه أحب سرًّا .. وكان في حبه كسولاً معذباً ، بسبب تمهله المميت ، كحاله في كل شيء .. أجل ، فقد أحب فيما مضى .. أحب صديقته العجوز ، مدام ساندر . زميله القديم ، ساندر . آه ! لو أنه عرفها فتاة لم تتزوج ! ولكنه قابلها متأخراً جداً .. وقد تزوجت رفيق صباه ! لو أنه رأى تلك الفتاة ، لتزوج منها . ليس في ذلك من شك ! فكم أحبها ، وأفرط في حبها للنهاية لقد أحبها يوم أن رآها للمرة الأولى .

انه يستذكر الآن ، تأثره كلما كان يراها .. وجزعه وحزنه ، عندما كان يتركها . ثم تلك الليالي التي كان يقضيها مسهداً يفكّر فيمن أحبها قلبه .

كان دواماً يستيقظ في الصباح ، وهو أقل هياماً بها منه في المساء ، وقد اشتدت جذوة غرامها وهيجاً في فؤاده . ولماذا ؟ لا يدري !

كم كانت مدام ساندر ، جميلة فيما مضى . . . كانت لطيفة ضاحكة . . شقراء ذات شعر جعد ! أما ساندر ، فلم يكن بالرجل الذي يستحقها ! ... انها الآن ، في الثامنة والخمسين من عمرها .. تبدو عليها السعادة . آه ! لو كانت هذه قد أحبته فيما مضى ! أجل ، لو كانت أحبته ! ولم لا تكون قد أحبته ، فانه أحبها . لمَ لا تكون مدام ساندر ، قد أحبت سافال ، الذي أحبها حبًّا جمًّا ؟

ألا ليتها فقط ، حزرت شيئاً ! .. ترى ، ألم تلحظ شيئاً بالمرة .. ألم تفهم أنه يكنّ لها كل هذا الحب ، الذي استأثر بقلبه وعقله ؟

إذن ، فماذا كان يتبادر الى تفكيرها ، لو أنه باح لها بحبه ؟ وبماذا كانت تجيبه ؟

وكان سافال ، يسأل نفسه عن آلاف الأشياء الأخرى ، فهو في هذه اللحظة ، يعيش حياته مرة ثانية ، ويحاول أن يحظى بالكثير من التفصيلات ، التي أشكلت عليه من قبل ، وتعذب في تفهمها !

كان يستذكر تلك السهرات الطويلة ، التي كان يقضيها عند ساندر ، في لعب الورق ،

حينما كانت زوجته صغيرة فاتنة . كان يستذكر كلماتها . . وابتساماتها الصامتة ، التي تومي الى أفكار كثيرة !

كان يستذكر تلك النزهات الجميلة ، عند ما كان يذهب ثلاثتهم — الزوج والزوجة والصديق — في رياضة على شاطىء السين . وعند ما كانوا يتناولون طعامهم ، فوق العشب الأخضر في يوم الأحد . وكان ساندر حينذاك موظفاً ، في ديوان المضبطة. وفجأة ، عاودته ذكرى ، تراءت له صافية . ذكرى يوم أمضى شطره الأخير في صحبتها . صحبة من أحبها قلبه ، في غابة صغيرة ، تمتد على شاطىء النهر .

كانوا قد توجهوا صباحاً ومعهم طعامهم في حزم ، تأنقت الزوجة الصغيرة ، في لفها وحزمها . وكان يوماً ضاحياً من أيام الربيع . يوماً من تلك الأيام التي تثمل الحواس وتبهر العقول بسحرها ، وتتفتح فيها القلوب ، للحب والجمال . كل شيء له أريج طيب . وقد بدا مرحاً سعيداً . كانت العصافير تغرد على الأفنان ، فرحة طروبة ، وتصفق بأجنحتها في حبور ومرح . وتذكر ، ثم تذكر . . . تذكر وهم يتناولون طعامهم ، على العشب الأخضر تحت أشجار الصفصاف ، بالقرب من المياه التي التحفت صفحتها المتماوجة ، ببريق الشمس . كان الهواء دافئاً ، مليئاً برائحة العصارة النباتية . وكانوا ينشقونه مستمتعين بالسعادة . آه ! لكم كان جميلاً ، ذلك اليوم !

كان ساندر ، قد نام بعد الأكل ، فوق العشب . . وقال عند ما استيقظ : « انها أجمل غفوة تذوقتها في حياتي » .

كان ساندر الشاب ، قد استلقى على ظهره ، فوق العشب اللين ، يطلب النوم ، في ذلك النسيم الساحر . واستندت مدام ساندر ، الى ذراع سافال ، وأخذا يمشيان هويناً ، على شاطىء النهر .

كانت تضحك في سرور . وكانت تقول : « اني سكرى يا صديقي . . سكرى بهذا الجمال . سكرى للغاية » فكان ينظر اليها ، وهو يرتعد حتى القلب . وأحس أنه قد شحب ونه . وداخله الشك ، أن تكون عيناه قد أفصحتا عما يعانيه فؤاده من لوعة الهوى . أو أن رعدة من ذراعه ، قد فضحت سره .

كانت مدام ساندر الشابة ، قد صنعت تاجاً من الحشائش الطويلة ونرجس الماء . زينت به رأسها البديع . وسألته : «أتحبني هكذا ؟» . يالله ! كيف احتمل هذه الكلمة ، ولم يفتضح أمر حبه الدفين ! أما كان أحرى به أن يقع على ركبتيه عند قدميها ! أما كان أحرى به أن يبوح لها بالحب ، الذي ملك عليه مشاعره ، وتغلغل في كل قطرة من دمه ؟ .

ولما ألفته ساكتاً ، ولم يجبها بشيء . جعلت تضحك . وكان الكدر ظاهراً في ضحكتها ، وهي تقذفه بالشتائم : «أيها الحيوان الكبير . هيا ! ألا تتكلم على الأقل !» . أما هو ، فكان على وشك أن يبكي ، ولا زال متعذراً عليه الكلام !

كلّ هذا ، مرّ الآن بذاكرته ، واضحاً كل الوضوح . كما لو أنه حدث في هذا اليوم. لماذا قالت له ذلك : «أيها الحيوان الكبير ، هيا ! ألا تتكلم على الأقل !»

وتذكر أيضاً ، كيف كانت تستند إليه في حنان . وبينما كانا يمرّان تحت شجرة تقوّس جزعها . فانه أحسّ أن أذنها ، قد لمست خده . فتقهقر فجأة خوف أن تظنه متعمداً هذه الملامسة ، وتذكر

وتذكر أيضاً ، عند ما قال لها : «أما آن لنا أن نعود ؟» فانها أرسلت إليه نظرة عجيبة. مؤكد ، أنها نظرت إليه نظرة فاحصة . لم يعرها إذ ذاك أي تفكير . ولكن ، هاهو الآن يفكر في تلك النظرة . وفيما كانت ترمي إليه ! وتذكر مدام ساندر ، وقد قالت له في وجوم:

كما تريد يا صديقي . فلنعد لو كنت تعباً . فأجابها قائلاً :

— ليس هذا معناه أني تعب . ولكن ربما يكون ساندر قد استيقظ الآن من نومه. فقالت له وهي تهز كتفيها :

— اذا كنت تخشى أن يكون زوجي ، قد استيقظ . فهذا شيء آخر . فلنعد !

وفي العودة ، كانت تلزم الصمت . ولم تستند الى ذراعه قط . فلماذا ؟

وكلمة « لماذا » هذه ، لم تخطر بباله قبل الآن . أما اليوم ، فيخيل إليه انه يلحظ شيئاً لم يكن قد فهمه من قبل ... فهل ؟ ...

وأحس سافال ، ان احمرار الخجل يكسو وجهه .. ونهض واقفاً ، وكأنما انقلب كيانه رأساً على عقب . وعاد ثلاثين عاماً الى الوراء . حيث كان في سنّ الشباب . وخيل إليه إنه يسمع مدام ساندر ، تقول له : « أحبك » وانه . وانه .....

هل من الممكن ، إنها كانت تكنّ له حبّاً . ولكنه لم ير شيئاً . ولم يفهم شيئاً ؟ . إن هذا الوهم ، الذي أتى يتسرب الآن الى روحه ، قد جعل يعذبه !

آوه ! لو كان هذا الوهم ، هو الحقيقة . لو كانت مدام ساندر ، أحبته فعلاً . لو أن

هـذه السعادة ، قد مرت به ، وتركها ، تفلت منه ، دون أن يمسك بها ! وقال وقد أهاجت لواعجه الذكرى :

« أريد أن أعرف . فليس في مقدوري أن أستمر في هذا الشك . أريد أن أعرف » .

« إني الآن في الثانية والستين من عمري . كما انها في الثامنة والخمسين . فيمكن لي اذن أن أسألها هذا السؤال ، دون خجل . حتى أفهم ، ما أشكل عليَّ فهمه فيما مضى . وعلى هذا خرج ساڤال من بيته .

كان منزل ساندر ، في نفس الشارع ، وفي مواجهة بيته تقريباً . قصد إليه ساڤال . وفتحت له الخادمة الصغيرة ، وقد وصل الى سمعها ، دقات مطرقة الباب المتواترة . ودهشت لرؤيته ، في هذه الساعة المبكرة وقالت له :

— أهو أنت ، يا سيد ساڤال ! هل جدَّ حادث ما ؟ . فأجاب ساڤل :

— لا ، يا بنيتي .. ولكن اذهبي الى سيدتك ، وقولي لها اني أريد أن أكلمها في الحال

— ولكن ، سيدتي تصنع حلوى الفلفل ، من أجل الشتاء الذي أقبل . وهي الآن في حجرة الفرن ، وفي ثياب لا تسمح لها بمقابلة الزوار . أفهمت ؟

— أجل ، ولكن قولي لها ، إني أريد أن أكلمها في شيء مهم .

وذهبت الخادمة الصغيرة . وجعل ساڤل ، يتمشى بخطوات عصبية . غير أنه لم يحسَّ ارتباكاً أو اضطراباً . آوه ! إنه سوف يسألها عن هـذا . كما لو كان يريد أن يسألها عن شيء يختص بالمطبخ . فقد أصبح في الثانية والستين من عمره !

وفتح الباب . وظهرت فيه مدام ساندر . انها الآن ، امرأة سمينة ، عريضة مستديرة . بخدين ممتلئين ، وضحكة رنانة .

وكانت تمشي ، وقد ابتعدت يداها عن جسمها . وكشفت ذراعيها العاريتين وقد تلوثتا بسائل السكر . وسألته في قلق :

— ماذا بك يا صديقي .. أمريض أنت ؟. وأجابها على الفور :

— لا ، يا صديقتي العزيزة . ولكني أريد أن أسألك عن شيء يهمني للغاية ، شيء يعذب قلبي . فهل تعدينني ، أن تصدقيني القول ؟ . فابتسمت قائلة :

— أنا دواماً صريحة . فسل ما تريد .

— ها أنا أقول لك ، إني أحببتك ، يوم أن رأيتك للمرة الأولى . فهل شككت في ذلك ؟ . وضحكت . ثم قالت تلك الجملة القديمة :

— أيها الحيوان الكبير . هيا ! لقد لحظت ذلك ، يوم أن رأيتك للمرة الأولى !

وسرت الرعدة في بدن ساڤال . وجعل يتمتم قائلاً :

— أكنت تعرفين ؟ . إذن ماذا ؟ . فعاد ساڤال ، يقول :

— اذن ، . فماذا كنت تفكرين ؟ . . ما . ما . ماذا كنت تجيبين ، لو أني فاتحتك . لو أني بحت لك بالحب ؟ .

وضحكت ضحكة قوية . وتساقطت قطرات العسل من أطراف أصابعها الى الأرض . وقالت:

— أنا ؟ . ولكنك لم تسألني عن شيء . ولم يكن من شأني أنا ، أن أجعلك تبوح!

وخطا ساڤال ، خطوة اليها . وقال لها :

— إذن ، هلاّ قلت لي . أتذكرين ذلك اليوم . حيث كان ساندر ، نائماً على العشب الأخضر ، بعد تناول الطعام . وحيث كنا معاً ، الى أن عدنا اليه ؟ .

وسكت ينتظر الجواب . وكفت هي عن الضحك . وجعلت تنظر في عينيه . ثم قالت :

— حقًا ، اني أذكر ذلك اليوم . وعاد يقول مرتعداً :

— هذا حسن . في ذلك اليوم . لو كنت أنا . لو كنت جسوراً في ذلك اليوم. وبحت لك بغرامي . فماذا كنت تصنعين ؟

وابتسمت مدام ساندر ، ابتسمت ابتسامة امرأة يعذبها الأسف . وأجابت دون تردد وبصوت واضح النبرات . وفي لهجة جدية :

— إذن ، لتقبلت كلامك بالرضى ، يا صديقي .

ثم دارت على كعبيها . وهربت الى حيث كانت تصنع الحلوى .

وخرج ساڤال ، الى الشارع ، حزيناً مهموماً . كأنما حلت به كارثة . وكان يسير متسللاً. تحت المطر ، بخطى كبيرة ، وفي خط مستقيم ، الى الأمام . هابطاً نحو النهر ، لا يفكر الى أين يقصد .

وعندما وصل الى ضفة النهر ، التفت يميناً . ثم أخذ طريقه ، متتبعاً الشاطىء ومشى وقتاً طويلاً ، كأنه مدفوع بغريزة فيه . وأصبحت ثيابه تقطر ماء . وتلفت قبعته ، وبدت وكأنها خرقة لا هيئة لها يتسرب منها الماء ، كما يتسرب من غربال . هذا ، وما زال ساڤال ، يسير أيضاً ، الى الأمام . الى أن وجد نفسه في ذلك المكان ، الذي تناول فيه طعام الغداء ، صحبة ساندر ، وزوجته . في يوم بعيد مضى . ولا زالت ذكراه ، تعذب قلبه !

ثم جلس تحت الأشجار العارية . . وبكى ... بكاءً مراً .

نعمت حسني

بعث

أسعدتَني يا قاهراً الأتراحِ   ومُحيلَ أرزائي الى أفراح
لما اجتليتك رفَّ قلبي بهجةً   وافترَّ ثغري بعد طول نواحي
ونسيتُ ما كابدته في حاضري   وذكرتُ عهد بشاشتي ومراحي
يا حسنٍ وجهكِ وهو يبسم ناضراً   بعذوبة خلابة وسماح
لما تجلَّى فجره انجاب الدجى   وعلا غناءُ فؤاديَ الصدَّاح

⁂

رانَ القنوط عليَّ حتى لحتَ لي   فتبدَّلتَ بعد التجهُّم حالي
وأضأتَ بالبشرِ المشعِّ غيابتي   وبعثتَ فيَّ محبَّبَ الآمال
وبدا جمالُكَ ضاحياً فإِذا به   يُضفي على دنيايَ أيَّ جمالِ
وغزوتَ معقلَ قبحها وضلالها   قبحٍ تغشَّى حسنها وضلالِ
أشبهتَ إقبال الربيع كسا الرُّبى   زهراً يهشَّ لذلك الإقبالِ

⁂

مثَّلتَ أبدع ما حواه وجودنا   من حسن سيماء وحسن صفاتِ
ونهضتَ رمزاً للطهارة داعياً   أهلَ الجحود الى هدى وتقاةِ
ونصرتَ روح الخير بعد قنوطنا   منه على روح الشرور العاتي
فتبدَّت الدنيا الذميمةُ جنة   في ناظري مخضلةَ الزهرات
يا مبدع الدنيا السعيدةِ هذه   روحي تعود فتحتفي بحياتي

⁂

لما سمعت حديثك العذب انتشت   روحي بأرخم ما تعي أذنانِ
واهتزَّ مني كلُّ عرق وانبرى   وتراً يرجّع أعذبَ الألحانِ
وحوت ضلوعيَ مهرجاناً راقصاً   يحييه رجعُ مثالثٍ ومثانِ
وتجاوبت أصداؤه خفاقةً   حولي وعم اللحنُ كلَّ مكانِ
فإِذا الوجودُ يميد منتشياً معي   لهجاً بحمد جمالك الروحاني

محمد مفيد الشوباشي

جولة

في الألحان والشروق

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

بعد ريادة الأستاذ خليل بك مطران للشعر الشرقي الحديث وما أدخله عليه من نهج جديد ، وتجارب منوّعة ، ومعاني مبتكرة ، وأخيلة طريفة .

قامت في مصر مدرسة أدبية تشق للشعر الفني جادة جديدة ، متأثرة مطران تأثراً توجيهيًّا ، وكانت تضم هذه المدرسة قلة مصطفاة من شباب الشعراء وكهولهم ، وعلى رأسهم الدكتور أبو شادي وناجي وغيرهما ، وقد اعتمدت هذه المدرسة القوة الشعرية في ذاتها ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها الأدبية ، ثائرة على القوالب الشعرية القديمة ، والمنظومات التقليدية المعاصرة — فاستطاعت بجهادها وجهودها ، أن تتحف البيئة الادبية بآثار قيّمة حوَت ألواناً من الشعر طليقة ، وصوراً مضيئة ، ومعاني جديدة ، وأنغاماً عذبة ، لم يكُ للناظمين الحفرين عهدٌ بها .

ومن نوابغ هذه القلّة ، الشاعر « حسن كامل الصيرفي » ، شاعر رومانتيكي النزعة في أغلب شعره ، مجنَّح الخيال ، شفّاف الأنغام ، جمعت شخصيته بين كنزين : طبيعةٌ فنيَّة ، ونفسيةٌ طيّبةٌ تلوح مظاهرها في لمحات وجهه المعروق الحساس ، وعينيه اللامعتين الذكيتين . ولقد هيأت له طبيعة بلده — دمياط — إلهامات منوَّعة ، انسابت إليه من البحر الجيّاش ، والنهر الهادىء المقدّس حيث يلتقيان هناك قريباً من بلده ، وفجّر الألم في نفسه ينابيع الشاعرية ، ونقلتها أعصابه المتجاوبة المرهفة ، فأثمرت شعراً جديداً ، فاتن النغم ، لا عهد للبيئة الأدبية المصرية به .

* * *

وكان ديوانه « الألحان الضائعة » أول ديوان مطبوع لشاعر وهو يعدُّ فتحاً جديداً

في الحقل الأدبي ، وتتمثل فيه روحه الثائرة على الحياة ، وعلى الرواسم الشعرية المألوفة ، والأهداف التقليدية ، إذ قد وعى تجارب فنية خالصة ، وازدهر بخيالات مجنَّحة ، ونغمات أثيرية ، أثملت قلوب الخاصة ، ورنَّت بعض أصدائها في القلوب الصافية المتصوفة من أبناء البلاد العربية ، وهذه النغمات وإنْ تضوَّع عبقها في قلة من الناس ، فانها لم تلقَ أيَّ تقدير من غالبية العادين من سكان هذه الأرض ، وهم الذين عناهم الشاعر بقوله في إحدى قصائده بديوان الألحان ، حيث قال :

بَنَيتُ لهم من جنان الخيالِ   فراديسَ ترقصُ فيها الفنونْ
فراحوا بجنّاتهم يهزأون   ومالوا على سُورها يهدمون
وأنشدتُهم من أغاني السماء   أناشيد تُعزَفُ للخالدين
فضاع الصدى في فضاء الحياة   وذاب النشيد وهم يصخبون
وحدَّثتُهم عن جنان الخلود   فكانوا بقصَّتها ساخرين !

* * *

ومثل هذه الألحان المتمردة كثيرة في ديوان « الألحان » وأكثر منها ألحان الألم ، وهي تفسير نفسه القلقة المتجهمة في حقبة من عمره ، وستظلُّ هذه الألحان نبعاً ثراً لقلوب الرومانتيكيين ، وللأرواح التوَّاقة للأُنس الروحي المفقود في دنيا الناس . ومن نماذج هذه الألحان ما جاء في قصيدته « ربيع كالخريف » التي يقول فيها :

هو الربيع .. ولكن أين بهجته   وأين ما كنت ألقى في مغانيه
هو الربيع .. ولكن لا أُحسُّ به   ولست أشعر شيئاً من معانيه
هو الربيع .. ولكن عند مبتهج   هو الربيع . ولكن عند أهليه
لكنني في خريفي بتُّ منتظراً   سقوط أوراق عمري في تلاشيه !

* * *

ومع وفرة هذه الألحان المشجية ، فلم يخلُ الديوان من خواطر تأثرية واقعية خفيفة مثل قصائده « المنديل » و « عقب السيجارة » . وقد جمع في هذه الأخيرة خواطر وجدانية

منوّعة، وقد استهلها بقوله:

في الأرض ملقاةً مذهّبةً   هذي اليتيمة من سجارتها
منبوذة كانت مقرّبةً   من ثغرها تفنى لسلوتها

* * *

كانت تؤانسها فتخلق من   موج الدخان عوالماً شتى
كانت تؤانسها فتبعث من   قبر الحياة حوادثاً موتى

* * *

كانت تشارك قلبها الوجدا   وتظلُّ تكتم شجوها عنها
أنفاسها معدودة عدًّا   وحياتها مسلوبة منها

* * *

وتطيل في الأنفاس ما شاءت   فتظلُّ صابرة على البلوى
حتى تذوب كأنما كانت   حلماً ولم يخلف سوى الذكرى

ولم يقتصر الصيرفي على النواحي التي ألمعنا اليها ولكن له لفتات غزلية متصوفةٌ، ونفثات في شعر الطبيعة ممتزجةً بالخواطر الوجدانية آناً، وبالفلسفة الخفيفة آناً آخر، فضلاً عن اتجاهات رمزيةٍ قليلة ولمسات إنسانية مثالية نادرة نمثل لها بمقطوعة «التضحية» وهي ختام ديوان «الألحان» — وقد جرت كالآتي، في أسلوب مباشر جميل:

هنا في هيكل الحبِّ   أُحقِّرُ مبدأ الفردِ
وأحرق عنده قلبي   بخوراً طيِّب النَّدِّ

* * *

ولست بنادمٍ يوما   على قرباني الضائعْ
أجلُّ الناسِ مَنْ يظما   ليرضي الظامئ الجائعْ

— ٢ —

هذه اللمسات العابرة تكشف — إلى حدٍّ كبير — عن شعرٍ مستقل نابغ ، وتنمُّ على شاعر متحرر أبى أن يرسف أدبه في الأغلال ، وتتنفس أنغاماً فريدة لذّة ، أنغام الأسى الحنون التي تعيش في الوجدان وتدوم ... وكأيٍّ من لذة في الأنغام الحزينة أعذب من اللذة نفسها ، كما يقول كليرانس دارو Clarence Darrow في كتابه «الواقعية في الأدب والفن»

* * *

وإذا كان ديوان الألحان قد أطرفنا بمثل هذه الأنغام وأتحفنا بتجارب شعرية خالصة جلُّها خواطر تأثرية وجدانية حزينة فان ديوان « الشروق » يسجل نقلةً شعرية مغايرة بانتقال الشاعر نقلة نفسية مشرقة . إنه ديوان غمرت أضواءه الظلال ، وأطلَّ في ثناياه وجه المرأة الجاذب ، ونبض فيه قلبها العاطف ، فوجَّه روح الشاعر وجهة جديدة ، وأضفى على شعره إشراقاً ، وأضاف إلى تجاريبه تجاريب ، ونوَّع انفعالاته ، وبدَّل قليلاً من موسيقاه ، وقاده من عالم الضباب والسحاب إلى عالم الحياة والأضواء .

وأثر هذا الوجه الجاذب ، ملموس في قصيدتيه « النور الجديد » — ص ١٠ — و« النظرة الأولى » — ص ١٦ —

في النظرة الأولى رأيتُ الحياه   تفتح لي باباً الى عالمٍ
تصدُق عيني اليوم فيما تراه   أمْ لا ترَى إلاَّ رؤَى حالمِ

* * *

في النظرة الاولى جمعتُ البعيدْ   من عالمِ الحبِّ وألوانهِ
في النظرة الأولى سمعتُ النشيدْ   فرُحتُ مغموراً بألحانهِ

* * *

في النظرة الأولى رأيت الشبابْ   يُحطِّمُ الأغلالَ عن ساقهِ
ويجهل الماضي ويَنْسَى العذاب   فيخفقُ الكونُ لخفَّاقه

* * *

قد كحَّل النورُ جفوني فلم   يَدَعْ لطيْفِ النوم فيها أملْ
سيُنكر القلبُ معانيْ الألم   ويفهم الكونَ بفكرِ الثَّمِل

* * *

فهذا نزوعٌ وجدانيٌّ مُشْرِق جديد وتَبَدُّلٌ نفسانيٌّ عجيب، جعل الشاعرَ، من النظرة الأولى، ينسى العذاب، وينكر الألم، ويودّع الماضي، ويفهم الكون فهماً جديداً، ويرى جماله بالنظرة الأولى، ويحسُّ في جمال هذه الحبيبة بدفقات النور تدفيء جوانحه، ويرى مرائي الطبيعة وبناتها بمنظار وردي، فيقول في قصيدته «النور الجديد» معبّراً عن أنس نفسه وإشراقها :

وصلتِ ما مرَّ من عمري بآتيهِ   فَرُحْتُ أُكْحِلُ عيني من مرائيهِ
مجلَّى من النُّور لم أبلغ مطالعَه   أنى اتَّجهتُ ولم أدْرِكْ تناهيهِ
الصبح يبلج تيَّاهاً بصادحِهِ   في مسمعيَّ جديدٌ من أغانيهِ
والفجر، قبل ارتحال الفجر، لمَّح لي   عما يضمنُ صبحي في معانيهِ
والطير تهتف والأزهار رانيةٌ   كأنها تتحرَّى مَن تُناجيه

* * *

ويبدو لنا أن فرحته الجديدة كان يشوبها كثيرٌ من التفكير. ودلالة هذا ظاهرة في القصيدتين سالفتي الذكر، حيث نجد فيهما توزُّعاً موسيقيًّا، وضوءاً قليلاً، وحركةً قليلة السرعة. والعهد بالشعر المرح، أن يكون عالي الموسيقى، قصيراً في مسافاته الصوتية، مليئاً بالنبض.

وحالما انقشع ما كان يحوّم حوله من تفكير في بداية حبّه، انبرى الشاعر يصف أثر الحبيبة فيه حِسيًّا، ومعنويًّا، فأخذ يصف أثر عينيها وشفتيها في مشاعره في قصيدتيه «عيناكِ» — ص ٤١ — و«شفتاكِ» — ص ٤٢ — وأثرها المعنوي في مثل قصيدتيه «الرضا» — ص ٤٠ — و«تنهُّداتي» — ص ٥٠ — وفي هذه القصائد الأربع، نجد تفاوتاً في تجاريبه، وفي حالته النفسية، وفي موسيقاه . . . ففي قصيدتيْ «عيناكِ»،

و «شفتاكِ» تعلو موسيقاه قليلاً، ويخفُّ توزُّعه النفسي، وتتواصل وحدته الأسلوبية، وتتجرد معانيه. وفي قصيدته «الرضا» تعلو موسيقاه قليلاً، وتهدأُ نفسه وتضوئ صوره، وتقلُّ فكراته .. وفي قصيدة «تنهداتي» تتوحد نفسه، وتتوحد موسيقاه، وتعلو درجات، وتتنوَّع انفعالاته، فلا يكتفي بالتعبير عن عاطفة الحب وحدها، والتلاعب بالألفاظ والصور حولها، ولكنه يضيف في هذا القصيد، انفعالات أخرى تلابس عاطفة الحب أحياناً. واعتقادي أن هذا القصيد خير ما في الديوان، وفي الفقرتين الأوليين منه يقول:

قالت:

علامَ تنهُّداتك في سكونكَ يا حبيبي
هل أنت في فردوس حبِّك حاملٌ عبءَ الغريبِ
تخفي كما يخفي شعاعُ الشمس في مهوى الغروبِ
أوَلمْ تجد في ظلِّيَ الوافي هناءاتِ القلوبِ
فظللتَ تزفرُ زفرةَ المحزونِ والعاني الكئيبِ؟!

*

لا تحسبي زفراتيَ الحرَّى شجوناً لم تولَّ
فهي التحرُّقُ في هواكِ وإن حييتُ بخير ظلٍّ
وهي التأمُّلُ في هواكِ وحيرتي ما بين جهلي
وهي التجرُّد في عناقك والتنعُّمُ والتملِّي
وهي اختلاج الوحي في نفسي بآيات التجلي

— ٣ —

والملحوظ في ديوان «الشروق» جنوح الشاعر، غالباً، الى التجريد في المعاني، كما هو الحال في ديوان الألحان، وميله الى الإبهام في أحيان، كما نلحظ ذلك في قصيدته البديعة «المعنى المبهم» ـ ص ٥٧ ـ وفي مطوَّلته المهموسة «وحدة العمر» ـ ص ٦١ ـ

كثيرٌ من التأملات والمعاني الغامضة ، ومن أعذب ما جاء فيها :

ستختلف الحياة أمام عيني
تمرُّ طيوفها وتغيب عني
وتفنى في محيط من تمنٍّ
وأحلامٍ تلوح بكل لون

ويختتمها بقوله :

تعالَ فقد بلغتُ حدودَ نفسي
وأطمع أن أحقق طيفَ حدْسي
فهل لك أن تذيب ثلوجَ يأسي
وتمزج حاضري بغدي وأمسي ؟

وهذا القصيد قد يمتعنا بأصداء شعورية بديعة ، إلاَّ أنه يضع الذهن في حيرة وتلدُّد . ويماثله في هذا المنحى قصيد « الحرمان » — ص ٢٣ — ذو المعاني المطلقة المجرَّدة والخواطر المبهمة التي يهيم بها الشعراء الشرقيون وبعض شعراء الغرب الرمزيين والمحدثين .

* * *

ويضاف الى ما تقدم أن ديوان « الشروق » امتاز في موسيقى بعض قصائده بأنغام ارتكازية لا عهد لديوان الألحان بها ، وآية ذلك قصيدته « القبلة » — ص ٣٨ — فأنغامها تتراوح بين العلوِّ والهبوط . وهذا النوع من الموسيقى نادر في الشعر العربي ، المنخفض القرار في الغالب ، وقد جاء في قدَّمها الأولى قوله :

خمرُ شبابٍ رطيبْ معصورة من قلوبْ
على الشِّفاه تذوبْ
في القبلتين ، وآه
من طعمها ! أسكريني !

وفي قصيدته « نشيد الثورة » تعلو موسيقاه درجات . وليس في ديوان « الألحان »

هذه الموسيقى العالية . ومما جاء في نشيد الثورة قوله :

تحرَّكْ يا أبيَّ الضيمِ وانهضْ
فحقُّك في بلادك بات يُرفَضْ
وأيُّ جفون مسلوبين تغمض
إذا ما الأُسدُ ديس على حِماها !

* * *

بلادك لُقمةٌ في عين جائعْ
وحقك نُهْبَةٌ في كفٍّ طامع
وأنت مع المذلة جدٌّ قانعْ
فقم وأزِح عن النِّيل السَّفاها

* * *

والملحوظ ، أن الصيرفيَّ في موسيقاه العالية لم يبلغ الأوج ، ولعلَّ ذلك راجعٌ الى طبيعته المنطوية ، الميَّالة الى كبح انفعالاتها . ولهذا نجده في ألحان الألم يجيد كلَّ الإجادة لأنها ألحانٌ تتطلب موسيقى هادئة منخفضة القرار ، وهي تحتاج في الإعراب عنها الى جهد كبير .

وفي ديوان « الشروق » طائفة من القصائد ذات الأنغام الهادئة المشجية مثل قصيدته « الشاعر والسحاب » — ص ٨٣ — التي أزجاها الى روح الشاعر النابغة « فوزي المعلوف » وقصيدته « الصباح الجديد » — ص ٨٦ — التي أهداها لشاعر الخضراء « أبو القاسم الشابي » وهاتان القصيدتان رائعتان من روائعه في تجربة موسيقاها ، وخيالها ووحدتها

ومما جاء في القصيدة الثانية قوله :

أيها المتعَبُ الذي حطَّم النايَ - واستراحْ
نمْ قريراً فقد سَرى لحنُكَ العذبُ في البطاحْ
فجرُك الحلوُ لم يَضعْ بين أيامك الشِّحاحْ

فهو ما زال سابحاً هاتفاً خافق الجناحْ

* * *

في مثل هذه النواحي الحزينة ، تتوحد تجربة هذا الشاعر وتشفّ موسيقاه ، وتعمق تأملاته ، ولعل مرجع هذا الى أن النفس في الألم تكون أكثر توحّداً ، وأشدّ استيحاءً لأروع ما فيها ، على حين انها قد تتوزع في قصائد المرح أو القصائد التفكيرية ، ولم يسلم ديوان « الشروق » وقد طافت به شعاعات الفرحة ، ولملمت به خواطر الفكر - من تخلخل وإن راقت فكراتها . وهذا ما تلحظه في مثل قصيدته « خمرة الفن » - ص ٣١ - و « الأفق » - ص ٤٧ - و « أنا » - ص ٦٨ . فهذه القصائد ليست على ما نرى في مستوى شعره النابغ

— ٤ —

ومن هذه اللمحات الخاطفة تظهر لنا بعض سمات شعر « الصيرفي » ومناحيه ، وإنه لشعرٌ رومانتيكيٌّ مجنّحٌ في عهد الفِتاء ، وشعرٌ غزليٌّ في عهد الشباب ، مازجته بذور قليلة من بذور الواقعية . وشعره ترجمة لحياته ونفسه المنطوية غالباً ، المنبسطة نادراً ، وتعبير لمزاجه المكتئب كثيراً ، المشرق قليلاً . فهو شاعر صادق لا أثر للتصنع فيه ، وهو من أبناء « أبولّو » العاكفين على محرابه ، العاملين على رفع لوائه . ومصداق ذلك نجده في أول قصيدة له بديوان « الشروق » الموسومة « بخلود الشعر » التي فيها يذبّ عن الشعر ويؤكد خلوده لأنه المعبّر عن آلامنا وأفراحنا وأشواقنا وخفقات قلوبنا ، النامّ عما في الكون من سحرٍ وجمال . وهو بهذا القصيد يذكّرنا بكلمات «فيكتور هيجو» عن الشعر وضرورته في قوله :

«بعض الناس يقولون في أيامنا هذه ، إن زمن الشعر قد مضى وانقضى ، وكأني بهم يقولون لا ورود بعد اليوم فقد قضى الربيع نحبه ، ولا أوبة . وإن الشمس لن تشرق بعد ، وإنك لو جُلت في الفضاء لن تجد فراشة ، ولا ترى للقمر ضوءاً ، وإنك لن تسمع زأرة

الأسد ، ولا صيحة النسر ، وان القلب البشري قد مات» .

* * *

وعلى غرار هذه الكلمات الشعرية ، جرت صيحة الشاعر الانجليزي الموهوب « برسي شيلي » في سِفره البديع « دفاع عن الشعر »

* * *

ولقد صار لزاماً على الأرواح المرهفة في الشرق أن تضم أصواتها الى صيحات هؤلاء الشعراء ، وترفرف بأجنحتها النورانية على دنيانا العاكفة على المادة القانعة بشرورها وسيئاتها .

وصار واجباً على الشاعر الذي نتحدث عنه وقد جاوز سنّ الأربعين بأشهر ، أن يخرج دواوينه التي لم تطبع ، وفيها قصائد فريدة معجبة ، وعليه بعد ذلك أن يودّع نزعته الرومانتيكية الغالبة ، ويهبط دنيا الناس ، ناظراً الى المجتمع الذي يعجُّ بالآلام ، والمآسي والمظالم ، ولْيَذكُرْ دائماً قوله في قصيدته « وحدتي » :

شقاءُ الناس يؤلمني فأُسعِدهُمْ بأشعاري
ونار الناس تحرقني ولا تحرقهم ناري

* * *

فلْيُقبِلْ إذنْ شاعرنا على العزف على قيثارة الحياة لا ليشجي الناس بأنغامه ، ولا ليسعدهم بأشعاره فقط بل ليصوّرَ آلامهم وآمالهم ويثور على أسوائهم وأهوائهم ، ويحمل على ظالميهم كما فعل في مثل قصيدته « السحابة المغترّة » التي رمز بها الى أحد الحكام المتعجرفين في زمن مضى — وما ريبٌ أن شعره المطبوع منه وغير المطبوع سوف يلقى من أدباء الشرق ما هو جديرٌ به من إعزاز وتقدير .

القاهرة **مصطفى عبد اللطيف السحرتي**

العاشق الاسير

أنا الظامىء الهيمان في لجَّة البحر   ويذبل عمري كالسراج ولا أدري
وما بي قيود غير أني مكبل   بحبي فمن لي بالخلاص من الأسر
أخال لوجدي ساعة العمر حقبة   فإن مرَّ يوم خلته مرَّ كالدهر
جزيت على حبي عناءً وغربةً   فيا بئس ما ألقاه في الحب من أجر
فيارب رفقاً بي وخفف عقوبتي   إذا كنت قد حُمِّلت في الحب من وزر
على أن حبي عبقريٌّ مشرِّف   نبيل المعاني من عفاف ومن طهر
سيخلد حبي في الزمان وإنه   ليصحبني أثناء عيشى وفي قبري !

كلية العلوم   عفيفي محمود

لحن أرجنتينا

وحي فيلم أمريكي معروف

عشاقُكِ يا « أرجنتينا »   طلعُوا بالخيلِ على الأفُقِ
ملأوا الوديانَ أرانينا   من سحرِ الخضرةِ والشفقِ

*

دفعوا بالخيل الى النهرِ   و « رِيو » باللحنِ تناديهم
طلعُوا يمشونَ على الزهرِ   وعبيرُ نسائكِ هاديهم

*

يهوونَ السيرَ على النغمِ   يروونَ غريبَ أساطيركْ
ما اللهفةُ في رُوحي ودَمي   إلاّ من وَحيِ قياثيرِكْ

*

ماذا أعددتِ لأشباهي   من سِحركِ يا « أرجنتينا »؟
القمرُ الفضيُّ الزاهي   حلمُ العشاقِ السارينا

*

زَفُّوا الأخبارَ الى « رِيتا »   وأنا منطلقٌ بجوادي
معشوقكِ يا « سِنيوريتا »   سيقيمُ الليلةَ في الوادي

*

نورٌ قد لاحَ لأنظاري   كالنجمة في سفحِ التلِّ
كوخٌ قد حُفَّ بأشجارِ   في حضنِ الزنبقِ والفلِّ

*

ودخلنا الجنةَ في الليلِ   نختالُ ثناءً وفرادَى
والنسمةُ عاطرةَ الذيل   تهفو بلحونِ « السرنادا »

*

أيّانَ أداعبُ « جيتاري »   والحلوُ الفاتنُ يُصغي لي
وأغني أحلى أشعاري   مِنْ قبلِ وَداعي ورَحيلي

القاهرة   يوسف جبرا

آراء
في العظماء والعظمة

لأميل لودفج

> العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك لان لهم من المحامد والمذام ما للرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل محمدة ومذمة . فاذا روعيت النسبة كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء . (جوته)

كانوا أربعة يفترشون الرمال . وقد وقفوا عربتهم فوق كثيب من الرمل يشرف على الساحل . واستقرّ الرأي فيما بينهم أن يقضوا ساعة ينظرون الى الأمواج والى زرقة الماء والسماء قبل أن تغرب الشمس .

ومع الجلال الذي ينبعث من العناصر الصامتة حولهم فان الحادث الجلل ، حادث غروب الشمس ، قد كان له أبلغ الأثر في نفوسهم . حتى لقد نسي هؤلاء الأربعة المتنزهون - الى حين - صنوف كفاحهم . وألوان فشلهم ونجاحهم . وحتى لقد بدا لهم أن الحرب كانت بعيدة عن هذه الدنيا . وحتى لقد غاب عنهم جميعاً أن الماء الذي ينظرون اليه ، هو ماء المحيط الهادي الذي كان يحمل في تلك اللحظة مئات من السفن تحمل الجنود . وقد حفّت بهم المكاره . فقد يبتلعها ويبتلعهم الماء بعد حين .

وصاح أحدهم — وكان تاجراً — قائلاً : أيها الاله القادر على كل شي ! ثم وكز بكوعه الشابة التي تفترش الرمل الى جانبه . وكانت هذه المرأة عازفةً من العازفات «على الكمان» فرفعت يديها الى عينيها لتقيهما الضوء المتوهج . ضوء الشمس الغاربة . ثم قالت في رفق ولين : ما أبدع المنظر وما أجمله !

أما صاحبتها الكبرى — وهي مدرّسة — والتي كانت الى تلك اللحظة راقدة فوق صدر زميلتها ، فقد دارت دورة ونظرت الى المنظر كله نظرة المتطلع ، لا نظرة الخائف

ثم قالت بصوت جهوري : إنه ليس منظراً . إنما هي الطبيعة !

وقالت الصغرى : هذا يتوقف ... ثم أمسكت عن القول . ذلك لأنها لم تشأ أن تثير جدالاً . ولكن الأخرى — وكانت أكثر اصراراً — ولت وجهها نحو الفيلسوف الذي كان قد انتحى ناحية يلعب مع الطفل . والذي كان جبينه المستدير — وهو متوهج بطبيعته قد احتواه ضوء الشفق وقد رمى هو ما وسعه الجهد — جهد رجل تقدمت به السن — صدفةً من الصدَف الى مكان بعيد . حتى يستطيع الطفل أن يجري ليعود بها .

ثم سألته قائلة : نريد رأيك يا أستاذ . ونريد أن تفتينا : أكل المناظر التي حولنا فن أم طبيعة ؟ فتبسم الفيلسوف وأدار وجهه نحو الجماعة وتكلم بصوت هادىء منغم وهو يقول : على أية حال انه شيء عظيم ! أليس كذلك ؟

ثم ساد سكون . ففكر التاجر لحظةً . ثم وقف كأنه يريد أن يبدأ توجيه الأسئلة . ثم جلس بين السائلة والمسئول فاجتمع الأربعة في حلقة أشبه بنصف الدائرة .

وجاء الطفل في تلك اللحظة وجلس على الرمل الى جانب أمه ليقارن بين صدفته الجديدة وبين ما اجتمع لديه من الصدف . وظلَّ الطفل يهمهم فيما بينه وبين نفسه . بينما خلا الكبار الأربعة الى حديثهم الغريب .

قال التاجر : وهكذا أنت يا جون تسمي هذا المنظر منظراً عظيماً . فهل لك أن تقارن بين الشمس الغاربة وبين رجل من العظماء ؟

فقالت عازفة الكمان : بين الشمس الغاربة وبين رجل من العظماء الذين مضوا وارتحلوا . فالشمس عظيمة حتى في موتها .

قال الفيلسوف : وكذلك الشأن لدى عظماء الرجال . فالرجل الذي يموت موتة غير مشرفة يقيم الدليل على أنه لم يكن في حياته رجلاً عظيماً .

المدرّسة : إذاً فالأمر متوقف على الساعة الأخيرة ! إنك لن تستطيع أن تقنعني بهذا الرأي . أنظر الى « نابليون » مثلاً فان نهايته كانت نهاية تعسة .

الفيلسوف : بل العكس هو الصحيح . فان « نابليون » مات كما يموت البطل الحق . وقد مات كريماً كما عاش كريماً .

قالت المدرّسة : بل اصبر : ثم اصبر ! أتقول البطل ! فمن هو البطل؟ وهل الأبطال كلهم عظماء ؟ وهل تقول إنَّ أولئك الذين يسميهم الناس أبطالاً هم عظماء . ولا عظماء سواهم؟ أمّا أنا فلست ضالعة مع الأبطال !

فقال التاجر وكان زوجها : رويدك يا دوللي ولا تخلطي بين الأشياء .

قالت الزوجة : إنّ « جاك » لينزعج عند ما أبدأ بقول ما أظنه حقّا !

ثم جلجل صوت الطفل وهو يُري أمّه صَدَفةً ويقول لها انظري الى تلك الصدفة !

قالت أمّه وهي تنهاه : إلزم الصمت فان الأستاذ سينبئنا بأسراره . فضحك الفيلسوف وقال :

إني أعلن أولاً أن لا أسرار عندي . ثم اني أريد أن أعرف أيّة أسرار تريدين أن تكون مدار الحديث ؟

قال التاجر : إن آخر شيء كنّا نتحدث عنه هو الشمس

قالت الزوجة : بل نابليون !

وقالت عازفة الكمان : أظن الحديث كان يدور على العظمة .

قالت المدرّسة : هو كذلك ! فامض إذاً يا أستاذ وقل لنا ما هي العظمة ؟

فتبسّم الفيلسوف وقال : يا فتاتي إنك تسألين كأنك واحد من مذيعي الراديو يسأل ما هو الفيتامين ؟ أو ما معنى كلمة زعيم بالأسبانية ؟

ولست أستطيع أن أضع تعريفاً للعظمة في جملة واحدة . فانّ العظمة كالجمال لا تستطيع جملة واحدة أن تحدّد معناه .

قالت دوللي متعجبة : ولماذا لا تستطيع أن تعرف الجمال ؟ إن تعريف الجمال ليس بالشيء العسير . ان الجمال هو ... إن الجمال هو ... ولكن دعنا من تعريف الجمال فكلنا نعرف وصفه !

فضحك القوم كلهم . ولزم الطفل أمّه كأنه يحميها لما رأى ما بها من حيرة واضطراب.

قالت العازفة : ان « جون على حق . فانّ التعريفات لا تقرب المعنى ولا تساعد على تقريبه . إنها تشلّ الفكر.

قال الفيلسوف : قد لا يصحّ هذا القول في مثل هذه الظواهر العظمى . والدليل على ذلك ـ إذا شئت ـ أن تراجعي دائرة من دوائر المعارف . وهناك تجدين في مثل لمح البصر قياساً لقطر الشمس . وقياساً لدرجة الحرارة فيها . وبياناً لبعدها من الأرض الى غير ذلك من عشرات الحقائق . ولكنك لن تجدي في واحدة من دوائر المعارف شيئاً يفيدك فيما نراه الآن بأعيننا .

وقد تجدين هناك حقائق عن عظماء الرجال . ومع هذا فان العظمة مختلفة النواحي متعددة الوجوه . فلها أشكال كثيرة . ولها ألوان كثيرة . وهي تستعصى على التعريف .

وقد شبّه « جوته » العبقرية مرّة بالآلة الحاسبة : يدار الذراع منها فتعطيك الجواب الصحيح . ولكن تلك الآلة لا تعرف لماذا جاءت بهذا الجواب . ولا كيف جاء هذا الجواب

قالت « دوللي » (وهي تريد أن توقع الفيلسوف في الفخ) : إذاً أنت ترى أنّ العظمة إنما هي شعور وحسّ ؟

قال الفيلسوف : إنّ العظمة هي أعظم من ذلك . وهي أقلّ من ذلك . ذلك لأنها توجد خارج دائرة حسّنا وشعورنا . وإنه لأمر محقق أنها قلّما تصل الى أعمق مواطن حسّنا وشعورنا .

قال التاجر : إذاً أنبئنا : من تسميه عظيماً ؟ نابليون ؟ أم هتلر ؟

الفيلسوف : من المؤكد أنّ نابليون عظيم . ومن المؤكد جدًّا أن هتلر ليس عظيماً .

دوللي : قد يكون الباعث لهذا الشعور عندنا أن هتلر عدونا . وأنه هو الذي شرّد أولادنا . ولكن ما هو دليلك على أن هتلر ليس عظيماً ؟ فنهض الفيلسوف وأخرج نظارته وبدأ يمسحها . ثم نظر الى الأفق البعيد كأنه يحاول أن يجمع أفكاره من بين أمواج المحيط . وكأنه يؤكد لنفسه جدية المسألة وجدية البحث فيها .

الفيلسوف : إن هتلر لا يستطيع الا الهدم والتخريب . وان الفكرة التي أوحت اليه أن يجعل شعباً واحداً سيداً على العالم كله لهي فكرة سخيفة .

وقد تملكت هتلر فكرة الرجل الجشع الذي يريد أن يفرض نفسه سيداً على العالم . وهو في ذلك كذلك المخلوق الضعيف الذي يريد أن يبدو أكبر مما هو على حقيقته فيظل

ينتفخ حتى يتمزق جلده . وحتى لا يبقى منه شيء .

التاجر : ألا تستطيع أن تقول أيضاً عن نابليون أنه إنما أراد التدمير والتخريب ؟

الفيلسوف : إن أول شيء صنعه نابليون ليلة نصره المؤزر هو تكوين لجنة من العلماء لوضع قانون جديد . يريد به إقامة الحدود . وصلاح أمور الناس . ولا يريد به الفساد .

ولا تزال قوانينه تلك بعد خمسين ومائة عام معمولاً بها في كثير من البلاد النائية .

قالت العازفة مستنكرة : إذن أنت تدعوه عظيماً من أجل قوانينه .

الفيلسوف : إنما أردت بقولي هذا أن أبين أن هتلر لا يخلف وراءه الاَّ الفساد وسوء النظام . وانظري الى صورته . ثم انظري الى صورة نابليون تعرفين كل شيء .

دوللي : اذن أنت تؤمن بأن محيَّا الرجل يحدد مدى عظمته ؟

الفيلسوف : إنه يدل عليها . فالرأس والملامح لا تكذب أبداً .

فرأس نابليون . وكذلك رأس الاسكندر أو قيصر أو دانتي أو بيتهوفن قد تكون كافية عند العارف الخبير للكشف عن عبقرية أولئك العظماء .

التاجر : ولكن هب أن نابليون لم يقنن أي قانون . بل كان مدمراً هدّاماً كجنكيز خان أ كنت تقول أن آراء الرجل هي التي تقوده وتصنع منه رجلاً عظيماً ؟

— إنها ليست آراء الرجل وحدها . ولا القوانين وحدها . فاذا قصرنا وصف العظمة على أولئك الرجال الذين خلفوا أثراً دائماً استحال الأمر على كل سياسي أن يكون في زمرة العظماء . ذلك لأن كل الأعمال العظيمة التي يأتي بها السياسيون إنما هي عوار مستردة يوماً ما وكل أمبراطورياتهم الى انهيار . وكثيراً ما تكون قوانينهم عرضة للتغيير والتبديل . وكل آرائهم سوف تنقض أو تصبح مسائل عادية .

ثم ما هو مدى الزمن اللازم الذي يضمن بقاء حاكم من الحكام عظيماً بعد موته ؟ خمسون عاماً ؟ مائة من السنين أو الف ؟ إن العظمة لا علاقة لها بدوام عمل من الأعمال ذلك لأن الأعمال التي تبقى على الزمن ليس لها وجود .

العازفة : انظري الى البحر المحيط ! ألا ترينه جميلاً !

دوللي : نعم انه جميل ! ولكن ما عليك إلاّ أن تنصتي لقول صاحبنا . وسترين انه سيقع في الفخ الذي نصبه لنفسه !

فضحك الفيلسوف وقال : لقد خرجت من الفخ مقدماً . وذلك باجتنابي للتعريفات !

التاجر: اذا اختفت أعمال الساسة . فماذا يبقى من أولئك الساسة ؟ ولماذا نسمي ملكاً من الملوك أو رئيساً من الرؤساء عظيماً بعد زوال الملك وفناء الجسد ؟

الزوجة : هذا حق لا ريب فيه ! ولماذا أيضاً نضفي لقب «العظيم» على حفنة من الملوك . ولا نضفي هذا اللقب على مئات من الملوك الآخرين . ما دام كل منهم قد شق طريقه في الحياة على طريقته . تدفعه الأنانية تارةً ويدفعه الغرور تارةً أخرى ؟

الفيلسوف : ذلك لأن من سمَّيناهم عظماء قد تركوا في الدنيا دويًّا من أثر الشخصية القوية فهي التي غالبت الدهر وعاشت بعد موتهم . لا تلك المعارك التي كسبوها . ولا تلك البلاد التي دوَّخوها وفتحوها .

وإنه ليكون خليقاً بنا حقًّا أن نهزأ بهم وأن نمحو ذكراهم من نفوسنا لو قُدِّر علينا أن نحارب اليوم خلفاءهم ..

فصرخت دوللي قائلة : هذا هو الرأي عندي !

العازفة : (في تحمس بالغ) : لن أومن بهذا الرأي أبداً !

الفيلسوف : ألا فانظري الى من يدافع عن أولئك الرجال أولي القوة والبأس : إنها فنانة فيها ظرف ورقة . وهي لا تربطها بأولئك الرجال أية رابطة . ولا تقوم بينها وبين أحد منهم أيَّة صلة . أتعرفين لماذا ؟ انها كإمرأة تعجب بقوة الشخصية عند رجل من الرجال . فهي ترى في صور نابليون ما تنم عليه عيناه . وهي لا تزال تحفظ جملة أو جملتين من خطبه . وهي تذكر بضع حكايات من حكاياته . وهي تحسّ أن حياته كانت ملحمة كبرى كما قال هو عندما آذنت شمس حياته بالمغيب . وهي تنسى أن مليوناً من الرجال قد قتلوا في سبيل تنفيذ خططه . وهي تنسى أنه ترك فرنسا أصغر رقعة وأفقر شعباً منها يوم تسلم زمامها . وهو ما أثار حفيظة معاصريه وأحنقهم وأغاظهم .

ولكن هناك مائة من جلائل الأشياء تصور عظمة نابليون وتجعل منه بطلاً .

من تلك الأشياء الجليلة تلك الفكرة التي كانت تغازله وتلازمه، وهي فكرة «أوربا المتحدة» ومنها تلك الرؤى الجريئة. رؤى فتوحاته. ومنها سرعة البت فيما كان يعتزمه. ومنها الشجاعة التي خاض بها ستين معركة. كان هو قائدها بشخصه، ومنها اعتقاده بسعود نجمه ذلك الاعتقاد الذي قاده بزمامه عدداً من السنين. ومنها أسلوبه في كتب غرامه وحبه. ومنها لمحة العبقرية التي أوحت إليه أن ينزع التاج من يد «البابا» ويضعه على مفرقه بيده ومنها أشياء أخرى كثيرة.

* * *

وإننا لنميل الى التجاوز عن ذلك العنصر الذي خالط منه اللحم والدم. والذي لا تقرّه القوانين الخلقية. ذلك لأن رجلاً من هذا الطراز لا يمكن أن يلجم بلجام القواعد الخلقية كما لا يمكن أن تمسك أسداً في بيت من بيوت العناكب.

المدرّسة: ولماذا لا يسري هذا القول على هتلر؟

— ذلك لأنّـه لم تخرج من فيه أية كلمة. ولم تومض من أُفُـقِـه أيّـة ومضة تنبيء عن العظمة ولم يرو واحد من المعجبين به شيئاً من هذا عنه. ذلك لأنه كان ذا شخصية حقيرة تعسة. وذلك على العكس من نابليون فانَّ ألدّ أعدائه قد قالوا وأطالوا في موضوع عظمته فقد حكي عنه أنه لما مرَّ في يوم من أيام صيده بكوخ «شاتو بريان» — ذلك الشاعر الذي نفاه هو — قطع بيده غصناً من أغصان الغار ووضعه فوق باب عدوه ثم وضع على ذلك الغصن قفازه.

وقد حكي عنه انه لما حملت زوجته الثانية بوارث ملكه وولي عهده. وحان مولده قال الطبيب: اننا لا نستطيع انقاذ الأم إلاّ بتضحية المولود. فقال الأمبراطور من فوره: انقذوا الأم أولاً. تلك الأم التي انما تزوجها لتلد له هذا الوارث.

مثل هذه الدلالات تشهد بعظمة نابليون أكثر مما تشهد بها معاركه كلها. وذلك لصدورها من محارب وحاكم.

التاجر: ولكن هب أن «جنكيز خان» قد أوتي مثل تلك الرؤى. وكانت له آراء

كآراء نابليون وله حس كحسه . وشعور كشعوره في زمرة من كنت تسلكه ؟

الفيلسوف : إني لأحسب هذا من آيات سوء الحظ فان هذه السجايا لم ينقُلها التاريخ إلينا . ولذلك فاننا لا نعرف عنه شيئاً — حتى ملامح وجهه — معرفة محقّقة .

وقد كان الاسكندر حصيفاً حكيماً الى حد كبير . ذلك لأنه كان يصحب معه في غزواته جيشاً من المؤرخين والقصاص . ولولا هذا لما سمي اسكندر الأكبر .

* * *

ولو كان قد أُتيح لقيصر أن يرى شريطاً من الأشرطة الحديثة للأخبار ورآها كيف تسجل للذراري المقبلة مشاهد رحلة لكبير الوزراء لجنّ جنونه من الحسد .

دولي : أرأيت ! ان المسألة كلها قوامها الاذاعة والنشر .

الفيلسوف : بل إنه الصيت الذي يبقى على الزمن ! إن ما ينشر اليوم أو غداً يمكن أن يشتريه الناس كلهم . ولذلك فان عظمة هذه الأيام قد تنسى بعد بضع سنين .

ولكن إذا انقضت مائة أو ألف سنة ونشرت على الناس أسطورة رائعة منقولة من أوراق قد نال منها البلى . فعندئذٍ يتقرّر مصير الشهرة — عُلُوّاً وانخفاضاً — لذلك الرجل من الماضين .

التاجر : قد يحدد الانعطاف والميل مدى العظمة أكثر مما يحددها فعال العظيم وأعماله

الفيلسوف : إن الانعطاف ليس هو موجد العظمة . ولكنه يلفت أنظارنا الى منابع تلك العظمة كأنه القضيب الذي نسترشد به الى حيث يوجد المعدن النفيس .

والأمر يختلف بين الأشخاص . فمن الناس من أوتي جاذبية ولم يؤت عظمة . ولكنك لن تجد رجلاً عظيماً لم يؤت قدراً من الجاذبية . وكلمتا « الجاذبية » و « الشخصية » هما مسميان لمعنى واحد . وإذا أردت الدليل على هذا فاقرأ ما كتب عن « جيفرسون » (ثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ١٧٤٣ — ١٨٢٦) أو لنكولن (الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة ١٨٠٩ — ١٨٦٥)

(للبحث بقية

مبارك ابراهيم

راقصة البوليرو

طالع الناس فيك بدر السماءِ   وفتون الاصباح والامساء
لكِ دَلُّ الغصون باكرها الغيـ   ـث فماست من نشوة الخيلاء
تتهادين مثلما يتهادى   الطيف وهْناً في المقلة الكحلاء
أنت حلم الشباب يعبق بالطيـ   ـب ودنيا تموج بالأضواء

* * *

حمد الناس رقصةً لك جَلَّتْ   وتسامت عن مدحة وثناء
كنت فيها أشهى من الأمل الحَـ   ـلو وأبهى من روضة غنّاء
للهوى لوعة الذبيح بعينيك   ووجد الصادي لنغبة ماء
تتلوين كلما عصف الشوق   بنار ، كالحية الرقطاء
ففتنت الورى بكل طريف   من ضروب الاغواء والاغراء
كنت حيناً كريشة تترامى   في مهب الرياح بالظلماء
وفريق يراك عاصفة هو   جاء تطوي مطارف الجوزاء
واذا رقت اللحون وبُحَّتْ   غمغمات الأبواق من اعياء
سرت سير المنهوك يقعده الجهـ   ـد وتحدو به طيوف الرجاء
كلما همَّ بالمسير ثنته   عن مراد مرارة الأدواء

فترامى على الثرى كنزيف   صرعته حزافة الصهباء

* * *

أي شيء أبقيت للشعراء   جلّ هذا الاحسان عن اطراء
ياسماء الاحسان في كل عين   كيف يوفي المديح حق السماء
عجز النطق أن يفي ببيان   عن خفايا هواجس الأهواء
وأصبت المعنى الدقيق من النفـ   ـس بوحي الايماء والاغواء
كم معانٍ للناظرين تبدت   وتراءت في فتنة الأعضاء
وكأني أرى الطبيعة في جفـ   ـنيك ماست بالحلة الخضراء
لست أدري وقد أتيت جليلاً   أي نار أججت في الأحشاء
هجت ميْت الهوى وأيقظت وجداً   مستكنّاً بالدمعة الخرساء
ورسمت الأهواء في خفقة الصد   ر وخافي الأحلام بالايماء
وبوحي الجفون حققت نعتاً   لمعان عويصة في الاداء

* * *

طالع الناس فيك بدر السماء   وفتون الاصباح والامساء

دمشق   عدنان مردم بك

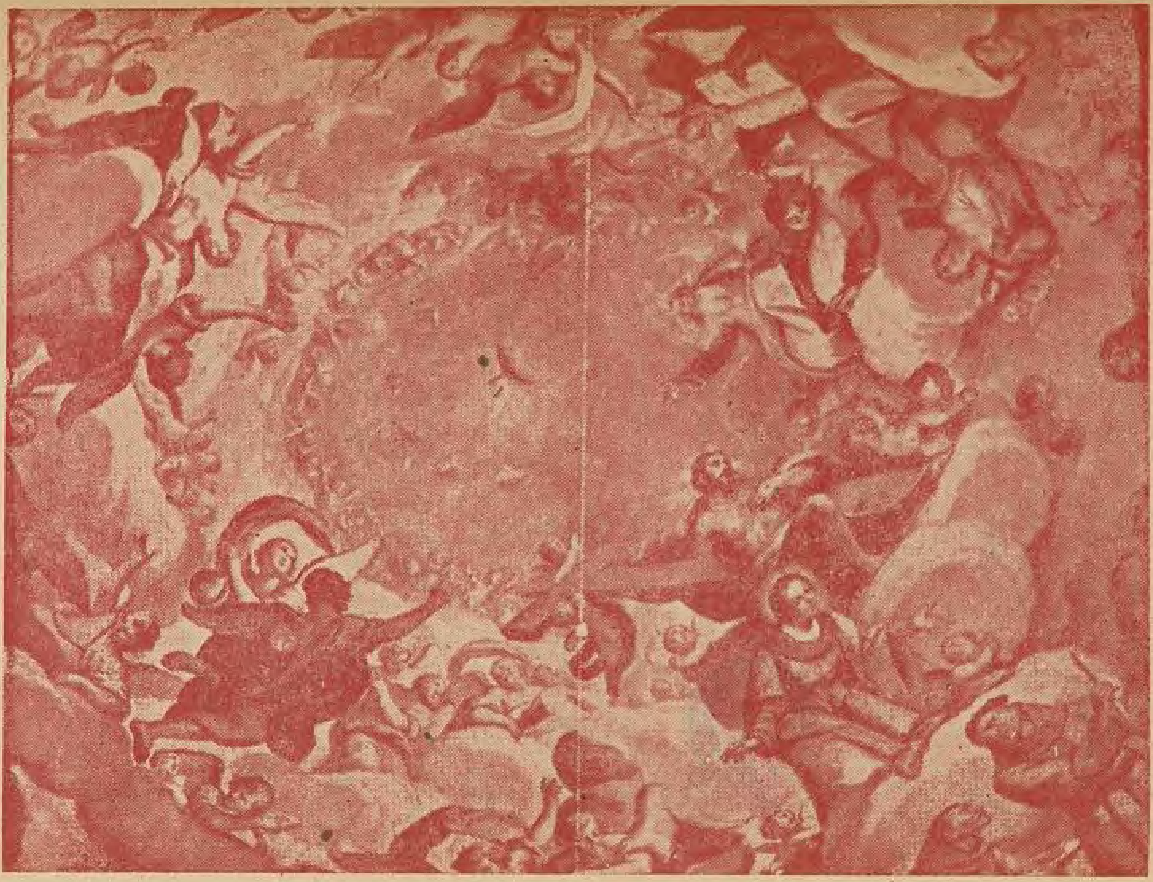

احدى روائع الفنان فرجارا فى احدى كنائس فلنسيا تمثل سقف احدى قاعاتها برسوم القديسين والشهداء من الفريسكو

صور شتى

في شرق اسبانيا

قضينا خمسة عشر يوماً في اجتياز هضبة أسبانيا الوسطى (المزيتا) من شمالها الى جنوبها صاعدين سفوح سلاسل جبالها التي تعترض الهضبة من الشرق إلى الغرب كحواجز تقسمها إلى أحواض تمتد فيها وديان الأنهار التي تنحدر من سفوحها وتصب شرقاً في البحر الأبيض المتوسط كنهر الأبرو الذي يروي مدينة سراجوزا في الشمال ، ونهر التاجه الذي تقع عليه العاصمة (مدريد) في الوسط ونهر الوادي الكبير في الجنوب الذي يخترق سهول الأندلس (١) : تكبدنا مشاق صعود تلك الجبال لالتواء طرقها وشدة انحدارها مع كثرة تعاريجها وانحناءاتها الحادة التي تبلغ ست انحناءات على سفح الجبل الواحد ، وخاصة في الشمال ، مما يعرّض أمهر السائقين لانقلاب سياراتهم إذا تهاونوا في حذرهم هنيهة كما تعرضهم لأخطار أجسم عاقبة أثناء هبوطهم وديانها إذا لم يحكموا قيادة سياراتهم ويهدئوا من سرعتها.

ومع تلك المشاق التي لم نتعوّدها في ديارنا المصرية — التي أنعم الله عليها بانبساط سطحها — فقد اطمأننا لرباطة جأش سائقنا (ماريانو) وحسن قيادته واتزانه في سرعته ، وساعد على ذلك عناية الاسبانيين بتعبيد طرقهم الجبلية المتسعة ورصفها رصفاً جيداً ييسر للسائحين الراحة التامة في عبورها علاوة على المناظر الجبلية الطبيعية المتنوعة التي تجذب نظرهم .

استغرق اختراق الهضبة بالسيارة ما ينيف على الخمسين ساعة قطعناها على فترات طالت أو قصرت ، حسب بعد المدن الاسبانية — التي نزلنا بها — وقربها ابتداء من مدينة

---

(١) الاندلس تعريب لوندالوسيا أي بلاد الوندال نسبة الى الشعب الاسباني الذي زحف على اسبانيا من الشمال واستقر نهائياً في جنوب اسبانيا وشمال افريقيا ومد سيادته على حوض البحر المتوسط الغربي

ناربون على الحدود الفرنسية الاسبانية حتى غرناطة في أقصى الجنوب بالقرب من جبل طارق .

ولما كان موعد عودة الباخرة التي ستقلنا من مرسيليا إلى مصر لم يبق عليه سوى خمسة أيام فقط فقد اضطررنا للعودة سريعاً ، ولم تتح لنا الفرصة لزيارة بعض المدن الأثرية الهامة في الجنوب كأشبيلية ومالقة والميرية على ساحل أسبانيا الجنوبي اكتفاء بما زرناه من قبل .

وكم كنا نود زيارة الجيرالدا والكزار — (١١٧٢—٩٥) التي أسست بأشبيلية أثر فتح العرب لها في عهد الموحدين، كما أسسوا بها مسجداً كبيراً لا تزال مئذنته قائمة تعرف في أيامنا باسم برج الجيرالدا (برج لعبة الهواء) بها زخارف على شكل بوائك صغيرة بارزة تشبه زخارف العمارة القوطية وتؤذن بقرب ظهورها وجعل المهندس ارتفاع هذا البرج ١٧٢ قدماً تتوّجه كرة من حديد مذهبة — قدرت قيمتها بمائة الف دينار — وضعت هذه الكرة فوق قطب زنته وحده عشرة قناطير .

أما باقي المسجد فقد تحوّل الى كاتدرائية شاهقة البنيان، مدببة الأعمدة دفن بها كثير من ملوك اسبانيا وعلى رأسهم الملك فرديناند في تابوت من الفضة نقش عليه في دائرة مذهبة صورته على جواده وأمامه ملك العرب يقدم له مفاتيح المدينة وإلى يمينه قبر زوجته وإلى يساره قبر ابنته التي هدمت المسجد وعلى مقربة منه قبر خرستوف كولمبس الذي اكتشف أمريكا . وعلى مقربة من الكاتدرائية القصر (الكازار) وهو كقصر الحمراء في الفخامة والضخامة الى جانب الروعة والجمال والثروة الهندسية فتحيط به حدائق غناء تزخر بنافورات المياه وهو لا يزال كما كان وقت أن ترك العرب الاندلس ، كما لا يزال أحد أجنحة القصر الكبير قصر الجنرال فرانكو حينما يزور أشبيلية . وتمد الحدائق المرتفعة لنزهة الصيف والحدائق المنخفضة بها حمام الحريم قيل إنه كان يستحم بها من الجواري في الدفعة الواحدة مائة جارية .

عرجنا نحو الشرق هابطين المزيتا لاتباع الطريق الساحلي الذي يمتد وساحل البحر الأبيض المتوسط من أقصى الجنوب الى الحدود الاسبانية الفرنسية ، وهو أقصر

الطرق نحو الشمال وأحسنها وأبدعها منظراً ، وأكثرها تنوعاً إذ يجمع بين المناظر البحرية من جهة والسهلية والجبلية من جهة أخرى . وقد تمتعنا بعض الوقت بجو صحو مشمس ذكرنا بمناخ مصر ، في الأوقات الذي سافرنا بها نهاراً حيث كانت درجة الحرارة مناسبة لتأثير البحر .

وكان ذلك الطريق الساحلي ملازماً للساحل مباشرة ملازمة الظل لصاحبه اللهم إلا في القليل النادر حيث كان يبتعد قليلاً عنه في المواضع التي تقترب منه حافة الهضبة .

مررنا بمدن وموانىء هذا الساحل الهامة مروراً خاطفاً يربطها ذلك الطريق الساحلي فتبدو ليلاً كأنها لآلىء نظمت في عقد من جمان كمرسيه واليكانت وفلنسيه وتراجونه وبرشلونه وجيرونا كمن يستعرض صوراً في كتاب ، ويتوقف قليلاً أمام بعضها ليتحقق من معالمها ، ويستمتع بها على عجل لأخذ فكرة عابرة عنها . وطوينا البعض الآخر بسيارتنا طيًا لضيق الوقت على عكس ما اتبعناه في المدن الاسبانية التي تتوسط الهضبة حيث سنحت الفرصة للاقامة ببعضها أربعة أيام أو خمسة تمكنا خلالها من رؤية معظم معالمها والوقوف على حياتها والاندماج مع سكانها على اختلاف طبقاتهم .

هكذا قطعنا ذلك الطريق الساحلي في ثلاثة أيام متخلفين في بعض مدنها للتزود من الزاد أيسره ثم استئناف السير أو النوم في البعض الآخر ورؤية بعض معالمها وآثارها كما سترى .

تركنا غرناطة في منتصف ليل اليوم السابع من أغسطس ١٩٤٧ بعد انقضاء يومين متواليين طفنا خلالها بقصور الحمراء وأبهائها مفخرة العالم الاسلامي وسجلاً حافلاً لفنونهم المعمارية والزخرفية التي لا مثيل لها في أي جزء من أنحاء العالم لليوم . هبطنا الهضبة في بهيم الليل متجهين صوب الساحل للوصول الى مرسيه ظهر اليوم التالي ، وما أن أشرفنا عليها حتى تذكرت مسجد أبي العباس المرسي بالاسكندرية الذي افتتحه جلالة مولانا الملك في صيف عام ١٩٤٥ ، وينسب صاحب هذا المسجد — أحمد بن عمر محمد الأنصاري المرسي — الى مدينة مرسيه ، وليس هذا بمستغرب ، إذ ابتدأت علاقة مرسيه بمصر منذ بدء الفتح العربي لإسبانيا حيث كانوا يقاتلون جنباً الى جنب مع جند الشام . ومنعاً من حدوث

اضطرابات بين طوائف الجند الإسلامية اقتطع كل طائفة منها مدناً بعيدة عن الأخرى وكانت مرسية من نصيب الجنود المصرية التي سموها « مصر »

اخترقنا سهول مقاطعة مرسيه الخصبة الغنية بخيراتها النباتية كالحبوب والفاكهة وخاصة البرتقال والبرقوق ويرجع الفضل في نهضتها الزراعية الى مشروعات العرب المائية كالري والصرف المتبعة للآن ، فأحالت هذه المشروعات تلك السهول الى جنات وارفة ذات أكمام زاهرة يانعة .

ويتوسط هذا السهل الخصب مدينة مرسيه نفسها ، عاصمة مقاطعة مرسيه التي تبعد عن ساحل البحر الأبيض بخمسة وعشرين ميلاً اجتزنا شوارعها العريضة المستقيمة المحاطة بالأشجار حتى وصلنا الى فندق فكتوريا الذي يعد على جانب عظيم من الفخامة ، وطلب إلينا النزول فيه للإستراحة به وكان ذلك قبيل الظهر ، وإن نسيت لا أنس ذلك الرياش الفاخر الناعم الذي زوّد به الفندق ، فحشيت وسائده بريش النعام الذي لم تطأه أجسادنا أو جسدي أنا على الأقل من قبل ولا تتصوّر شعوري عندما وجدت المكان الذي رقدت فيه قد هبط عن باقي الوسادة وأخذتني سنة من النوم كانت أسعد أوقات حياتي وخاصة بعد سفر طويل .

بعد تناول الغذاء ، أتيحت لنا فرصة زيارة كندرائيتها التي بنيت في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر على الطراز القوطي ما عدا بعض زيادات أضيفت إليها في عصر النهضة كبرج الأجراس الذي يرتفع الى ٤٨٠ قدماً كما أضيفت الى واجهتها واجهة كورنثية في القرن الثامن عشر .

وفي الغروب اجتزنا باقي سهول مرسيه الشمالية الذي قطعتها جيوش المسلمين في عهد طارق بن زياد للاستيلاء على ولاية « تدمير » التي كانت تسمى حينئذٍ . وشهدت هذه السهول أعظم معركة انتصر فيها المسلمون على القائد الاسباني وقتل معظم رجاله . وأبى ذلك القائد التسليم إلاّ بعد الحصول على شروط حسنة . فدبر في حيلة عرض فيها النساء بملابس الجند على الأسوار للتغرير بالمسلمين . وخضعت ولاية مرسيه للحكم العربي في قرطبة ثم للامراء المسلمين في المريه وطليطلة وأشبيلية . وأخيراً استولى عليها الموحدون ١١٧٢

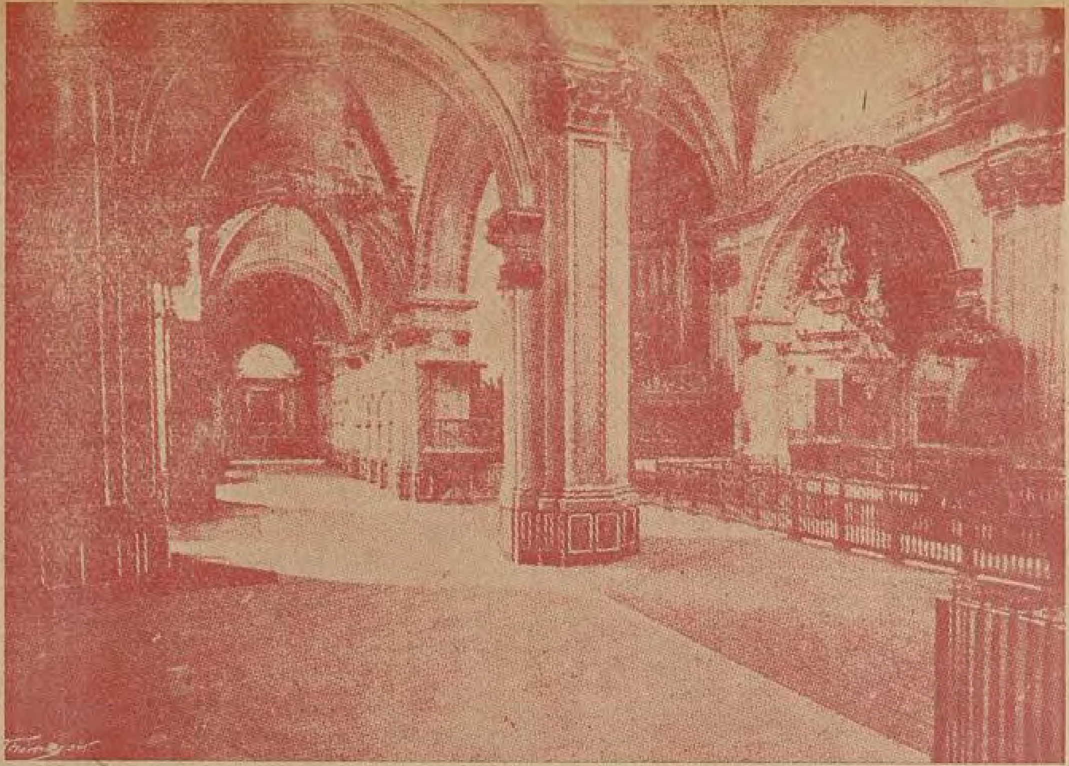

كاتدرائية فلنسيا من الداخل بعمدها الضخمة وعقودها المستديرة

حتى أغار الفونسو على حكم الزيريين بها في نهاية القرن الثالث وضمها الى مملكة كاستيل .

* * *

لم يستغرق السفر الى اليكانت وقتاً طويلاً لا يزيد على أربع ساعات . فوصلنا اليها في منتصف الليل حينما استقبلنا علية المدينة وعظماؤها أمام أحد أنديتها البحرية التي تشبه « الكازينور » بالاسكندرية ، ولم نمكث بهذه المدينة سوى ساعتين تناولنا خلالهما طعام العشاء ، وقد مدّت على الموائد الى جانب ما تشتهي الأنفس مما لذّ وطاب ، أحسن ما أخرجته اليكانت من أنواع خمورها المحلية المعتقة المستخرجة من كرومها التي تحتل ٤٠ ٪ من المساحة المنزرعة . ولا يصدر منها إلاّ أقلها نوعاً إلى أوربا وخاصة فرنسا

وقد يظن القارىء أننا قضينا ليلة « حمراء » دارت فيها رؤوسنا مع الكؤوس ، بل احتفظنا بتقاليدنا الاسلامية ، وقد زاد من دهشة الاسبانيين أن بعضنا بل الكثير منا لا يشرب الدخان . وقد استغلّ (المدخنون) منا هذه الفرصة وأقبلوا على سيجار هافانا بنهم الذي أهدي الينا في غير مناسبة واحدة

أبى محافظ المدينة وزملاؤه إلاّ أن يكرموا وفادتنا بأجلى معاني الاكرام وان يقضي معنا أطول وقت ممكن وأن نسير معه بعد العشاء على كورنيش المدينة الى نادي الضباط للتجذيف على مقربة من الكازينور » فسرنا على الأقدام تحقيقاً للمثل العامي « أتعشّ واتمشّ » .

وخلا استقبال الأسبانيون لنا في هذه المرة من كل المظاهر الرسمية واندمج محافظ المدينة وأعيانها معنا يضحكون ويغنون ويرقصون في حلقات دائرية غير عابئين بالمارّة ولا بنظراتهم التي غصت بها الطريق في ذلك الوقت المتأخر طلباً لنسيم عليل يروّحون به عن أنفسهم من حرّ النهار ، وبالرغم من أن اليكانت مدينة ساحلية فانها كانت ولا تزال كغيرها من المدن الساحلية محرومة من الهواء البارد الذي نعرفه في مصر اللهمّ إلاّ في القليل النادر ، ويظهر أن سبب ذلك يرجع الى أن الرياح الشمالية التي تلطف حرارتها تسير موازية لساحل أسبانيا الشرقي ولا تتوغل داخله مما جعل الاسبانيين يلجأون الى الساحل دائماً طلباً للهواء البارد في تلك الساعات المتأخرة بعد منتصف الليل .

وفي صباح اليوم الثامن أشرفنا على سهول فلنسية فاخترقنا حدائقها الغناء المشهورة بأكواخها الناصعة البياض، تحيط بها أشجار الصنوبر الداكن الخضرة والنفض الكثيف التيجان مع نخيل في غاية الجمال. تشرف هذه الأكواخ على منحدرات ساحلية خضراء أحالتها مشاريع العرب المائية في القرون الوسطى الى مناطق تعدّ من أعظم جهات العالم خصباً. وتدين فلنسيا في نهضتها الزراعية إلى العرب الذين ظلّوا حكاماً عليها زهاء الخمسة قرون حتى القرن الثالث عشر.

ولما كانت الأراضي الزراعية محدودة الانتاج لا تتفق والتقدم الاجتماعي الحالي لزيادة عدد السكان زيادة مطردة فقد هاجر عدد كبير من الريف الى المدن حيث الحياة أكثر رفاهية ونعيماً والمدينة الحديثة أكثر سحراً وجاذبية من جمال الريف الطبيعي.

انتهت الحكومة الجمهورية الحالية الى ذلك الخطر الذي يهدّد كيان الريف الأسباني فأخذت تعالج هذه المشكلة بشتى الوسائل فسارعت الى اصلاح مساحات كثيرة من الأراضي البكر بإقامة المشاريع المائية كالترع والمصارف وتشييد مزارع نموذجية مزوّدة بالمساكن الصحية الصالحة للسكن ووزعت تلك الأراضي على الفلاحين.

ولما لم يحقق ذلك المشروع الذي تشرف عليه الحكومة الغرض المنشود منه، ولم يوقف تيارات هجرة الفلاحين الى المدن للاشتغال بالصناعة فقد لجأت الحكومة الى مشروعات أوسع نطاقاً بإيجاد مؤسسة وطنية لتوزيع الأراضي ونزع ملكيتها والانتفاع بها على مزارعين ذي خبرة لإدارتها وكفاية استثمارها على أن تؤول ملكيتها في النهاية لهم نظير تقسيط ثمنها على آجال بعيدة المدى تبلغ الخمسة والعشرين عاماً بأرباح لا تزيد عن ٣٪.

وقد وجد الفلاحون كل التسهيلات اللازمة للأراضي من هذه المؤسسة لإدارة الأراضي كشق الترع والمصارف ومدهم بالإرشادات الزراعية ومنحهم قروضاً تعينهم على اصلاحها فسارعوا الى تلبية رغبتها وتنافسوا في اقتناء هذه الإقطاعيات الزراعية حتى بلغ عددهم ١٣٫٢١٣ مالك دفعوا ما عليهم من الأرض قبل الموعد المحدد بوقت كثير. ويبلغ جملة ثمن ما حصلت عليه المؤسسة الوطنية ثمناً للاراضي المباعة ٣٠٠ مليون بزيتا. (الجنيه المصري = ٤٤ بزيتا)

وأهم آثارها كتدرائيتها التي شيدت على أنقاض المسجد الكبير ويرتفع برجها الى ٦٤ متراً في عنان السماء — وتشرف طنفه على أجمل ما حبته الطبيعة من المناظر الخلّابة للمدينة وما يحيط بها من الحدائق الدائمة الخضرة والزهور لدوام فصل الربيع طول العام.

وقد بنيت الكاتدرائية على الطراز القوطي في القرن الرابع عشر. قد غيرت الاصلاحات والزيادات التي أضيفت إليها من طرازها القديم ـ ولم تحتفظ بحالتها القديمة سوى قبتها ـ أما باقي الكاتدرائية فطرازه من طراز الباروك ، وأضيفت إلى أركانها الأربعة معابد صغيرة تعدّ من أروع ما أنتجه الفنانون الأسبانيون أمثال جويا ولانوس. وكانت فلنسية منذ القرن الخامس عشر أهم مراكز الانتاج الفني الأسباني فتطورت فيها الفنون على يد الرسامين جاكومارت وفينشيو ولانوس ويوحنا وريالتا واسبينوزا وأورنديتا وغيرهم ، كما كان بها مدرسة للنحت وأشهر أساتذتها مينوزا وفرجارا وستيف وجميعهم مثلت روائعهم في كنائس فلنسية ويضم متحفها نماذج تمثل تطوّر فن فلنسية منذ بدايته.

* * *

ورث الفلنسيون من العرب حبهم للعلم ونبوغهم فيه فأنشئت لهم جامعة في مدينة فلنسية نفسها تضم كليات العلوم والطب والحقوق والفلسفة (الآداب) وقد تمكنا من زيارة الكليتين الأخيرتين وتضم هذه الجامعة نحو ثلاثة آلاف نسمة لا يتعدى عدد الآنسات بها عن الثمن.

وامتاز أهل فلنسية بالمرح وكثرة الحفلات والأعياد ولم تمض أعوام كثيرة فيها يوم واحد دون أن يحتفل فيه بعيد من الأعياد في شارع أو أكثر — وان قلت هذه الأعياد اليوم فإن الفلنسيون ينتهزون أعياد القديس يوسف والأعياد التي تقام في أواخر يوليه وأوائل أغسطس كحفلات معركة الزهور التي كان للفلنسيين قصب السبق في ادخالها الى اسبانيا ، ويتفننون في شتى أنواع المرح والحبور الذي تأصل في دمهم من زمن بعيد. وقد ظهر ذلك في الحفل الذي أقامه لنا المحافظ في مصيف بلدية المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وفي الصباح الباكر من اليوم التاسع وقفت السيارة أمام أحد مستودعات البنزين في

برشلونه لنتزود منها استعداداً للسفر إلى الحدود الاسبانية . انشغلت صاحبة المشروع في بيع بعض طعام الافطار للمارة فتأخرت قليلاً عن إجابة طلبنا . وتبودلت مناقشة حادة بين موظفي وزارة الخارجية الاسبانية المرافقين لنا وبين صاحبة البنزين علا فيها صوتها دون مبالاة لشخصياتهم الرسمية ، وغير خائفة من المتربعين على كراسي الحكم . وان دلَّ هذا على شيء فانما يدل على أن الشعب الاسباني يتمتع بكامل حريته للتعبير عما يراه دون أي ضغط أو نفوذ خارجي . وقد تبين لنا من هذا الحادث ومما لمسناه بأنفسنا في غير هذه المناسبة على أن حكم الدولة وعلى رأسها الجنرال فرانكو حكم دكتاتوري صالح مستنير — عكس ما نفهمه من معاني الدكتاتورية كالنازية والفاشية وغيرها — ولذلك كان الجنرال فرانكو محبوباً بين قومه لما لمسه من جهوده الجبارة وحكمته وحسن سياسته في تجنب البلاد من ويلات الحرب العالمية الأخيرة وتفرغه للنهوض بها في خطوات سريعة في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وخاصة بعد الحرب الاسبانية الأهلية المنتهية عام ١٩٣٦ التي أوقفت سير الحياة وكل تقدم فيها .

ومما يدل على حكمه المستنير ، وبعد نظره ، وعدم استئثاره بالسلطة واحترامه للحريات الشخصية ، ومسايرته لرغبات الشعب ، أنه استهلَّ عهده باعترافه بأن اسبانيا كاثوليكية وأنها ملكية ولذلك أعاد جميع الحقوق المدنية إلى الملك الفونس الثالث عشر وسمح لابن ولي عهده «دنجوان» المطالب بعرش اسبانيا بالتعلم بمدارس اسبانيا ـ بل ذهب الى أبعد من ذلك فأراد أن يقوم حكمه على رغبة صادقة من الشعب فأجرى في عام ١٩٤٧ استفتاء عاماً محايداً فاز فيه بأغلبية ٨٢ ٪ ممن لهم حق الاقتراع و ٩٢ ٪ ممن تقدموا فعلاً لاعطاء أصواتهم بالاعتراف كزعيم للشعب الاسباني مدة حياته ثم يخلفه على عرشها اسباني كاثوليكي من دم ملكي يختاره مجلس البلاط الملكي بأغلبية ثلثي أصواته .

هكذا غادرنا اسبانيا أثناء تقرير الشعب مصيره .

محمد رجب البيلي
دبلوم في الآثار الاسلامية

جامعة فلنسيا يتوسطها تمثال لويس الخامس

VALENCIAN TYPES

نساء فلنسية بملابسهن الوطنية

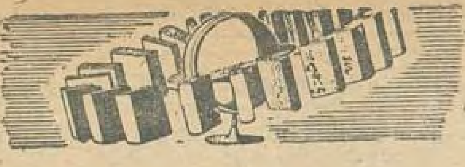

مكتبة المقتطف

كاتبان وكتابان

بقلم حبيب الزحلاوي

(١) كتابان صدرا في شهر واحد ، طبع الأول في بيروت ، والثاني في القاهرة ، وقد اتجه مؤلفاهما الفاضلان اتجاهاً واحداً ، وصوَّبا جهودهما صوباً واحداً ، ودعيا الشعوب الشرقية الى اليقظة والانتباه ، ووصفا كيف كان حالها في الماضي ، وقدَّرا كيف ستصبح عليه إذا بقيت راضخة لحكم الأمر الواقع ، وذكرا ببيان واضح الوسائل التى توسلت بها تلك الحكومات المغتصبة المستعمرة وبأسلوب لا لبس فيه ولا عوَج الذرائع التي استحدثتها لابقاء سلطانها مبسوط الظل على القارات الشرقية الشاسعة وقطانها الأجراء ، وأهابا بأقوامهما أن استيقظوا وتدبروا مصائركم ، واعملوا الى دفع شرور أولئك الأقوام السلاَّبين النهَّابين عنكم ، ألاَ يكون مبعث هذا الاتفاق في الرأي والغرض والدعوة وفي الزمن أيضاً هو الوعي القومي ويقظة النفس ؟

(٢) يستمد الكاتب المصلح وحيه من شعوره المرهف ومن آلام موضوعية تتحوَّل الى آلام ذاتية تفعل في النفس فعل الأولى ، فمن هذه الآلام تأثرت نفس الدكتور قسطنطين زريق وكيل رئيس الجامعة الأميركية في بيروت وأحست بالنكبة التي حلَّت بالأمم العربية في فلسطين ، فكتب في « معنى النكبة » كتيباً صغير الحجم ، كبير الفائدة . وهكذا أيضاً أحست نفس الأستاذ أحمد رمزي بك القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي بسوريا ولبنان بالواقع من جور الاستعمار الظاهر ، وبالباطن من أسرار سياسة المستعمرين فكتب متخذاً من « الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية » كتاباً كبير الحجم كبير الفائدة ، دعا فيه مثل دعوة زميله زريق ، وأهاب بقومه مثل ما أهاب الأول بقومه . ألا يكون هذا أن الكاتبين المصلحين رمزي وزريق قد استمدا وحيهما الاصلاحي من نفسيهما الحساسة ومن نفوس أهالي بيئتهما الحساسة أيضاً ، وألا يكون مصدر هذا الاحساس هو يقظة النفس والوعي القومي ؟

(٣) لا يخلو مجلس من المجالس الاجتماعية ، خاصة كانت أو عامة ، من حديث عن حالنا الحاضر الكدر بالنسبة لغيرنا من الأمم التي تواكب قافلة الحياة ، وعن حالنا بالنسبة للحكومات التي تقف عثرة في سبيل تقدمنا ، ولا نسمع من هاتيك الأحاديث كلمة رضا واحدة عن أمرٍ واحد من أمورنا الاجتماعية ، بل بالعكس نسمع التذمر والشكوى والنقد والملامة بل السخط على أعمال رجالنا العاملين مبعثه الاستحثاث والاستعجال للسير قدماً في موكب حياة العصر ، ولو تدبرنا أعمال رجالنا العاملين لوجدنا فيها الخير والبركة بالنسبة الى ما كنا نستجديه من الحكام الأغراب عنا ، وبالنسبة الى أطماعنا . وقد كانت محدودة بحدود رضا المخلوق الخامل واستكانة الذليل القانع ، ولكن طبيعة نفسنا وقد أيقظتها الحرب تتطلب السرعة . ونحيزة وعينا وقد تحسست طريق الحياة تنشد بلوغ الأرب بأقرب مدى ، وأقصر سبيل

لذلك أقول وأؤكد للذين لا يؤمنون بتطور الأمم الشرقية ، والى الذين ينكرون عليها نهضتها ، أن مبعث حكمكم الجائر ، إنما هو حكم الشيوخ على الشباب ، وحكم الجيل الذي انقضت مهمته في الحياة على جيل يحمل رسالته لحياة جديدة وعصر جديد بوسائل غير وسائلكم وسلاح غير سلاحكم .

(٤) إتخذ رمزي بك من الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية وسيلة لإيقافنا على أصل الاستعمار ، وأطواره ، ومشاكله ، وتوسعه الجارف ، وشرح مبادىء المستعمرين وفلسفتهم الاستعمارية الحديثة ، وسرد طائفة من أخبار وأعمالٍ وقعت تحت سمعنا وبصرنا وحسنا في أمسنا القريب ويومنا الحاضر في الجزائر ومراكش وأورد الاحصائيات التي تظهر حال المستعمَر المسكين الذي يعيش مكتفياً بالفتات بالنسبة لحال المستعمِر السيد الذي يمتص دم الشرقي ولا يرتوي . ثم ذكر بجرأة وصدق الأسباب البعيدة والقريبة لانحطاط الشعوب الشرقية ، وقد تبسَّط في شرح ما حلَّ بالمراكشيين والجزائريين عن يد الفرنسيين شرحاً يدعو الى التساؤل هل للفرنسويين أفئدة وإحساسات مثل ما لكل الناس وهل لهم شعور انساني يعادل شعور الانسان المهذب ؟!!

وأوضح الكثير من المنافسات الاستعمارية ، وتدخل بعض الدول الكبيرة في شؤوننا وتغلغل النفوذ الأجنبي في مصالحنا وقال « إن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح في سبيل تحرير الشعوب . يجب أن يسبقها تعرف التوسع الاستعماري وأثره وأهميته ومداه ، لكي نستخلص القواعد الأولية التي تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة ، وهي التي تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكي يركز على أساس منطقي

معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال ، وما ترجو الوصول اليه من أهداف حتى تحرر نهائيـًا . وبعد أن استعرض الموقف الدولي الحاضر ، وذكر المسكنات والمخدرات التي يخدر بها الغرب أعصاب الشرق قال « ليس لدينا للآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا ، بل إن موقف مجلس الأمن إزاء قضايا مصر وفلسطين واندونيسيا ليس مشجعاً ، ولعلّ انقسام الكرة الأرضية الى معسكرين من نتائج هذه الرجعية القائمة في أنحاء الدنيا » ولكن على الشعوب مهما كانت الظروف قائمة أن تشقّ طريقها الى حياة النور ، وأن تعمل لتتغلب على المصاعب القائمة حتى تفرض شخصيتها وآمالها وأهدافها على العصر الذي تعيش فيه .

ثم قال : « سيكون طريقنا وعراً أمامنا ، والعقبات صعبة في صعودنا نحو الحرّية والعدالة ، ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند ، وأن يعتبرنا العالم مجموعاً حيًّا راقياً ، تملك من حق الرعية والمعاملة ما يملكه أي مجموع أوروبي راقٍ يسير نحو التطور . إننا نفضل أن نفنى جميعاً من أن يحاول العالم إرضائنا بالعرض دون الجوهر أو يلهينا بالأقوال دون الحقائق . إننا نأخذ عقلية وأساليب أوربا لنتغلب على جبروت أوربا » .

(٥) وقف الدكتور قسطنطين زريق من القضية الفلسطينية وقفة الطبيب وقد تكشفت له أعراض الداء فرأى أن الأمم العربية منيت على يد اليهود والاميركان والروس والانجليز بكارثة لا مثيل لها في تاريخ العالم ، وقال عنها أنها « نكبة » بكل ما في هذه الكلمة من معنى « ومحنة » من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم « وقضية » لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب الى الحق « واستعمار » صهيوني غايته إبدال وطن بوطن وإفناء قوم ليحل محلهم قوم آخرون. ثم أخذ يشرح معنى النكبة وفداحتها ، ويذكر واجب المفكر ، والمعالجة القريبة ، والحل السياسي ، والصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين، حلاً هادئاً معقولاً وقد ابتعد بالقارىء عن مواطن العاطفة ومثارات الوجدان ، وارتأى آراء غاية في الاعتدال بعد ان استعرض جميع العوامل البعيدة والقريبة ، الداخلية والخارجية أيضاً. قال: لا بد لرد الخطر الصهيوني من وضع قواعد لجهاد طويل الأمد تقوم على خمسة أركان (١) الاحساس بالخطر وارادة الكفاح (٢) التعبئة العامة (٣) التوحيد بين جهود الدول العربية (٤) اشتراك القوى الشعبية. ويرى أيضاً أن الغلبة لا تكتب للعرب إلاّ إذا سلكوا سبيلها القويم ، وسبيلها تبدل أساسي في الوضع العربي ، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا كلها ، وان ارادة الكفاح لا تصد إلاّ بارادة مثلها أو أقوى منها ، ووحدة الولاء لا تقهر إلاّ بوحدة أتم وولاء أشد ، وان لا مهرب من اتحاد عربي ينتظم في دولة اتحادية

توحد فيهم سياستهم الخارجية والاقتصادية (١) وتطور اقتصادي واجتماعي وفكري، ثم كيان قومي متحد تقدمي»

ليس وضع القواعد الاساسية في رأيي، متطرفة كانت أو معتدلة هي كل شيء في كل عمل، إنما يجب لنجاح القواعد أن يكون واضعوها قادة حقيقيين وزعماء أصليين، أي أن نفوسهم مفطورة على التقدم، مطبوعة على قلب الأوضاع العتيقة البالية وإقامة أوضاع جديدة تساير روح العصر في كل شيء.

ثم وضع الدكتور زريق بعض قواعد للتقدم توائم أغراض البيئة والوسط الذي يعيش فيه يصلح بعضها لأكثر الأقطار العربية لأن مصر أدركت أكثرها وهي ما برحت مطردة التقدم وهي (١) اقتباس الآلة واستخدامها (٢) فصل الدولة عن التنظيم الديني (٣) تدريب العقل وتنظيمه بالاقبال على العلوم الوضعية والتجريبية (٤) فتح الصدور لاكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية وروحية.

ويختم المؤلف البارع بحثه القيم باستنباط معنى لجهادنا في فلسطين فيقول «ليتعدَّى جهادنا الحاضر حدودنا الى العالم أجمع، ويمتد من الحاضر الى آفاق المستقبل البعيدة، ذلك أننا لا ندافع عن حقنا فحسب، بل عن مبادىء تهم كل شعب من شعوب الأرض، ونتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية، ومغزى تاريخيًا. وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الانساني خلال العصور في سبيل الحفاظ على القيم الباقية، والحريات البشرية الأصيلة، ومن حقنا نحن العرب أن نكشف عن هذا المعنى لنبين للعالم خطورة جهادنا لنضع أنفسنا في الموكب الانساني المناضل عن الحق والمبدأ». اه

(٦) عرف كل عربي مبلغ ما قاسيناه من نكبة فلسطين، وعرفنا أن ثلاث ممالك من أقوى ممالك العالم ناصرت اليهود وساندتهم في بناء دولتهم ومدَّتهم بقوَّات معنوية ومادية جعلتهم يتفوقون على العرب. ولكن هل من واجبنا الاكتفاء بما فعلناه أو الاستكانة لشذَّاذ اليهود ولمامات المتشردين؟

ليس تقارب أميركا وروسيا في الرأي وفي الاعتراف بدولة اسرائيل بالاتفاق الطويل العمر، ولا موقف الانجليز المذبذب ولا مراوغاتهم وألاعيبهم بالأسرار المكنونة التي لم تتضح بعد، وليس في العالم دولة تعيش على الاستجداء كما تعيش دولة اسرائيل المتهافتة ولكنها ستعيش حقًا إذا تخلى اليهودي الاميركي والانجليزي والروسي والألماني والفرنسي

---

(١) لدي من المعلومات ما يدعوني الى القول بأن أصابع السياسة تعمل على توحيد السياسة الخارجية في العراق وسورية ولبنان وشرق الاردن، وان مسألة سورية الكبرى قد طويت الى حين بعيد.

وكل يهودي منتشر في أصقاع العالم عن جنسيته ووطنه ليستوطن فلسطين ويتجنس بالجنسية الاسرائيلية ، إذا حدث هذا فعندها يحق على العرب في فلسطين إما الاستسلام والرضوخ لليهود ، أو الهجرة الى ديار جيران اخوان لهم ، ولكن منطق العقل ، وقواعد الاقتصاد وعوامل الاجتماع تجعل أمر انضمام يهود العالم كلهم في صعيد واحد تحت راية اسرائيل في حكم المستحيل لسببين ، الأول : أنه ليس لليهود مزايا الأمة الموحدة ، والثاني: لأن لا رابطة لهم إلاّ رابطة الدين وألم الاضطهاد ، لذلك يرى الدكتور زريق أن النكبة التي حلت بنا إنما هي محك لوضعنا الداخلي الحاضر ، فاذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا فان هذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالاً وتمزقاً ، أما إذا كان لعوامل التقدم والنمو فينا بعض القوة فان الصدمة التي تلقيناها خليقة أن تعزز فينا هذه العوامل وتمشي بها قدماً بمزيد همة وتراكم أثر » .

(٧) نرى مما اقتطفنا من مؤلفي الكاتبين البارعين أحمد رمزي بك والدكتور قسطنطين زريق ، ومما اتجها اليه في بيان واضح في العرض ، وصدق صحيح في تقدير الواقع ، وثقابة فكر في وضع القواعد وسن الخطط ، وإهابة أمنية في توجيهنا وجهة الغرب ، وجرأة محمودة في مخاطبة الزعماء والحكام والقادة ، والدوي الذي أحدثاه في كل مكان واستماع القراء الى دعوتهم وتناول بحثهم بالدرس والاستيعاب ، وتداولهم أركانه وقواعده في المجالس الخاصة والمنتديات الاجتماعية ، يضاف اليه ما ذكرته في مستهل كلامي أنه الدليل على أن الأمة المصرية بخير ، وكذلك الأمم العربية ، وان ليس في استطاعة أحد أن ينكر علينا يقظة نفسنا ووعينا القومي الحقيقي ، وتنبهنا الى ما يدبره الغرب لنا ، ودأبنا في تحصيل علوم الغرب واتقان شرور الغربيين لنقاتلهم في الغد القريب ، بعلومهم وشرورهم بيقظة ووعي ، وأخيراً أقول ليس في تقدمنا بطء نعاب عليه أو تقاعد نخشاه ونخافه ، انما أخشى ما نخشاه هو بث روح التخاذل فينا ، والاقلال من قيمة نهضتنا ، والحط من قدرتنا على فهم الحياة لأننا شرقيين .

حبيب الزحلاوى

في عالم الفلسفة

تأليف الدكتور أحمد فؤاد الاهواني صفحاته ١٧٠ صفحة من الحجم الكبير بمطبعة مصر

الناشر مكتبة النهضة

هذا أحدث مؤلفات الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد ، فقد أخرج قبل ذلك في العام الماضي كتاب « معاني الفلسفة » و « كتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى » .

والكتاب جديد حقًا في المكتبة العربية ، إذ يتناول مؤلفه موضوعات لم يسبق الحديث عنها في اللسان العربي ، أو كما يقول المؤلف في مقدمته « الفلسفة بحر لا يعرف له قرار يحتاج في معرفتها إلى العلم بما قاله القدماء ، وما ذكره المحدثون . وهو شيء لا تحيط به إلا المتون والمطوّلات . وليس غرضنا الإحاطة الشاملة بكل ما يقال في الفلسفة قديمًا وحديثًا . وإنما رأيت أن أضيف الى الموجود في اللسان العربي فصولاً لم يلتفت إليها غيري من المؤلفين ، فتلقي الضوء على بعض الجوانب المجهولة ، أو تزيد الناس بها بيانًا . لذلك كان هذا الكتاب جولة في عالم الفلسفة ، لا إحصاء لدقائق هذا العالم الفسيح . أو هو زهرات من بستان الفلسفة أقدّمها للقراء باقة يشمون منها عبير الفكر » .

ولا ريب في أن فصول الكتاب مبتكرة . فهذا أول فصل في النحلة الأورفية التي أثرت أعظم الأثر في فيثاغورس وفي أفلاطون حتى لقد قال برتراند رسل في تاريخه للفلسفة « إن افلاطون يلبس مسوح النحلة الأورفية » . بل لقد أثرت الأورفية في المسيحية بما ذهبت إليه من التمييز بين النفس والبدن ، وأن النفس إلهية والبدن مصدر الشر . ويتحدث بعد ذلك عن مصدر هام من مصادر سقراط ، يغفله عادةً مؤرخو الفلسفة ذلك هو أرستوفان شاعر اليونان الهزلي الذي ألّف تمثيلية السحب وسخر فيها من سقراط وأشاع عنه القول بانكار الآلهة مما كان سببًا في محاكمته فيما بعد . وهذا فصل عن أكاديمية أفلاطون ، وتاريخها مجهول كذلك ثم عن رأي أفلاطون في الله والعالم . ويختم القول في الفلسفة اليونانية بإله أرسطو المحرك الذي لا يتحرك

وفي عالم الفلسفة الإسلامية يتحدث المؤلف عن موضوعين كبيرين : أمواج الفكر الاسلامي فحقق القول في الخوارج والمجسمة والشيعة والقدرية والمرجئة بطريقة جديدة لم يسبقه اليها أحد . أما الموضوع الآخر فهو نظرية المعرفة عند اخوان الصفا ، والغزالي وابن سينا ، والفارابي ، وهل المعرفة فطرية في العقل أم مكتسبة ، مع التحقيق والتدقيق

وفي عالم الفلسفة الحديثة يبدأ بعرض فلسفة هيوم ومذهبه في نفي الأسباب والمسببات مما كان داعيًا الى إثارة الفيلسوف الألماني كانت . ثم يتحدث عن تقدير الجمال أهو شخصي أم موضوعي ، وللمؤلف في ذلك رأي جديد . ويعرض بعد ذلك الى علم حديث يدعى الميتابسيشيك أو ما بعد النفس ، ويفصل موضوعه وهو الكلام عن الروح وانتقال الفكر والكشف وما إلى ذلك . وينتهي بفصل عن المنطق الرمزي الحديث الذي ينتقد منطق أرسطو ، ويهدمه من أساسه .

فأنت ترى أن موضوعات الكتاب طريفة جديدة ، تفتح آفاقًا للتفكير ، وتضيف الى القراء ثروة في المعرفة ، مع الاطلاع على أحدث ما وصل اليه الفكر في العصر الحاضر .

صوت العالم

تأليف الاستاذ ميخائيل نعيمة — نشر دار المعارف بمصر — القاهرة ١٩٤٨

ميخائيل نعيمة لقيته في « البيادر » يحاول أن ينظر الى مشكلات العالم والانسانية من زاوية شرقية خالصة ، وهأنذا ألقاه في صوت العالم « مرة ثانية ، نفس الشفافية التي يحيط بها إطار من الحس الصوفي الذي يسايره المنطق الذهني ، ونفس السمات العربية التي تنبض بروح الشرق ، ولكن ثمة اختلاف بين البيادر . و « صوت العالم » مرجعه الى الفوارق البادية بين النطاقين ، ففي « البيادر » يعرض لمشكلات الشرق العربي ، وفي « صوت العالم » يربط هذه المشكلات باتجاهات الفكر الانساني كليًّا ، ومن هنا تختلف وجهة النظر ، ومن ثمَّ يختلف تقدير الناقد ، فما هي تفاصيل الخلاف ؟ . .

تفاصيل الخلاف تنحصر أولاً في تسمية الكتاب فعنوانه ، يوحي للقارىء بأنه سيلقي حلا للقضايا الانسانية الكبرى التي يرتفع بها صوت العالم . فاذا ما قرأ الكتاب ، انتهى من ذلك بأن المؤلف يحاول أن يربط المستقبل بالماضي في أسلوب جميل ، دون ما نفاذ الى الحقائق الواقعة في الزمن الراهن ، ونعني بها وقوف الدول على مفرق طريق ، ينتهي بها الى خطين متوازيين ، أحدهما يقوم على نظرية المادية الجدلية Materialism Dialectique والآخر قائم على أساس من النظرة الانسانية التي تتفرَّع منها المذاهب السياسية المعاصرة التي تقف أمام الشيوعية وجهاً الى وجه . هل يلتقي الصنوان ؟ كيف يتفاقم الخلاف بينهما ؟ وما هو مصير الانسانية ؟ . هذه هي القضية الكبرى التي يرتفع بها صوت العالم ، ولكن الكاتب آثر أن يحصر صوت العالم في زوايا أخرى غير هذه ، فربط الماضي بالمستقبل - كما أسلفنا - وراح يعالج قضايا يمكن أن تضاف الى البيادر ليستكمل الكتاب بعض الحلقات الناقصة .

وهذا يبدو واضحاً في قضية الشرق والغرب وهل ثمة التقاء بينهما » وقد عرض فيه للقاح المستمر بينهما ، وما يستتبع ذلك من تبادل في أساس المعرفة والثقافة ، ثم في قضيته عن رسالة العالم العربي ، التي يعرض فيها للمستقبل الذي ينظر للعالم العربي أن يقوم به ، وما نحسبه — في رأينا — إلاَّ مهيأ لدور روحاني كبير . وثمة فصول عالجها في نفس الطابع الذي بيناه عن مستقبل الانسان ، وعن أزمة الضمير العالمي التي ستنتهي — في نظره — بارتباط كوني يوحي إليه الحاضر وتؤيده اتجاهات الفكر الانساني .

ويبقى بعد هذه العجالة السريعة أن نحدد قيمة كتابه ، وكل ما يقال فيه أنه صوت يرتفع لأحد اتجاهين في واقع البشرية ، طريق الانسان الروحي ، الذي يريد أن ينظر على طريق الإنسان المادي ، وقد عرض فيه الكاتب لوجهة النظر الواحدة هذه ، وكل ما ينقصه شيء من الموازنة ، لتتعادل كفتا الميزان .

صبحي شفيق

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

٧٣ الروحانية وتطورها عند البدائيين وفي العصر القديم : اسماعيل مظهر
٧٦ بترول الشرق الأوسط يزداد مقامه في خارطة البترول العالمي : وديع فلسطين
٨٠ مغنية : « قصيدة » بشار بن برد
٨١ الشيخوخة وطول العمر : الدكتور عبده رزق
٨٩ نظرات في النفس والحياة : نظرات لورد بيكون : ع . ش
٩٩ أسف « قصة » للكاتب الفرنسي جي دي موپاسان : ترجمة الآنسة نعمت حسني
١٠٦ بعث « قصيدة » : محمد مفيد الشوباشي
١٠٧ جولة في الألحان والشروق : مصطفى عبد اللطيف السحرتي
١١٧ العاشق الأسير « قصيدة » عفيفي محمود
١١٨ لحن أرجنتينا : يوسف جبرا
١١٧ آراء في العظماء والعظمة : لأميل لودفج : ترجمة مبارك ابراهيم
١٢٩ راقصة البوليرو « قصيدة » : عدنان مردم بك
١٢٩ صور شتى في شرق اسبانيا : محمد رجب البيلي

* * *

١٣٧ مكتبة المقتطف * كتابان وكتابان بقلم حبيب الزحلاوي . في عالم الفلسفة . صوت العالم : صبحي شفيق

ملحق المقتطف

٥٧ رسالة الشاعر : ابراهيم الابياري